على مائدة داعش

رواية

زهراء عبدالله

دار الآداب

على مائدة داعش

زهراء عبد الله

على مائدة داعش

رواية

دار الآداب ـ بيروت

على مائدة داعش

زهراء عبد الله / روائية لبنانيّة / سوريَّة
طبعة الأولى عام 2017
ISBN 978-9953-89-

تصميم الغلاف: محمَّد الزغبي

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

إلى النساء المختطفات لدى داعش:

«لأنّي عاجزة عن فعل أيِّ شيء لَكُنَّ،

كتبتُ هذه الرواية»

زهراء عبد الله

ـ ١ ـ

يقذفُ بنا الظلام بقسوة خارج الأرحام، لا يترك لنا فرصة أن نقرِّر، أو نختار، لنجد نفسنا مرغمين على تقبُّل النور..

في النور، حين نتعلَّم كيف نكون أحرارًا، نضحك باستهزاء، ونحن نقول:

«كم كان الظلام متعجرفًا! يظنُّنا سنعود إليه لنطمس فيه أرواحنا للأبد، ولم يتيقَّن بعد أنَّ من يلتحم بالنور، لا يمكن له أن يعود إلى الظلام إلَّا منسلخًا، مرغمًا، كما غادره».

تتوسَّط شعلةٌ من النار، المتَّقدة ببضعِ قطراتٍ من زيت الزيتون، حلقةَ القيام بـ «رقص السما»، التي يؤدِّيها سبعةُ رجالِ دين يرمزون إلى الملائكة السبعة، بثيابهم «الشالك»[1]، تلك العباءات البيضاء، تعلوها سترة قمحيَّة اللون طويلة بأكمام واسعة.

(١) الشالك: الزيّ الإيزيدي التقليدي للنساء والرجال.

يتقدَّمهم «فقير حجّي»، رجل دين بشالك أسود يمثّل «شيخ آدي»[1]، بحركاتهم البطيئة المتناسقة المتناغمة مع إيقاع الطبول وعزف الناي، يطوفون حول الشعلة سبع مرَّات.

يحاوطهم عدد كبير من الزائرين، محتفلين بعيد أربعينيَّة الصيف[2].

حافو الأقدام يقفون على أرضيَّة معبد لالش[3] الواقع بين ثلاثة أودية. بقبَّته المخروطيَّة يشقّ الفراغ ناكزًا السماء..

بالقرب من عائلتي، أقف حافية، أُراقب بعيون يلبسها الشوقُ المحرَّمُ الجهة المقابلة لحلقة الرقص، لمحتُ وجه سيروان بين الوجوه.

مضت شهورٌ طويلة لم أره فيها، منذ ترك القرية لم يعد إليها، ربَّما ليتجنَّب رؤيتي!

تعلو الترانيم، وتتكاثف رائحةُ البخور المُحترق مع الشعلة، ترخي الأشجار الممتدَّة على مساحة باحة المعبد بظلالها فوق الرؤوس، ورجال الدين يستمرُّون بطوَفانهم حول الشعلة، قاطعين عليّ فرصة أن تطأ عينيّ حقول الورد بعينيْ سيروان.

---

(١) شيخ آدي: هو الشيخ عديْ بن مسافر مُجدِّد الديانة الإيزيديَّة، وله منزلة مقدَّسة وأساسيَّة فيها.
(٢) عيد أربعينيَّة الصيف: يبدأ كلّ سنة في ٣١ تمُّوز لغاية ٢ آب، يسبقه صوم لأربعين يومًا من قبل رجال الدين وممَّن يرغب من العامَّة، من مراسمه زيارة معبد لالش، والقيام برقص السما، وتوزيع الأضاحي على الفقراء.
(٣) معبد لالش: هو موقع مقدَّس لدى الإيزيديين، يقع في شمال العراق. يحجُّ إليه الإيزيديُّون مرَّة واحدة على الأقلِّ في حياتهم.

لماذا يعود اليوم؟ من أجل العيد، أم لأجل عينيّ؟ كما كان يقول لي دائمًا:

«عيناك تُحضراني إليك حتى وإن كنتُ في آخر الدنيا».

يقفُ في الجهة المقابلة بعيدًا عنِّي، يفصلني عنه غيابٌ طويلٌ، وحلقةٌ من رقصٍ سما!

كان يبحث عن شيء، عن أحد. حين وجدني، ثبّتَ اتِّجاه الشمس نحوي.

أومأ لي برأسه تحيَّةً صغيرةً، هل أتوهَّم ذلك؟

انتهى الرقص بإكمال الدورة السابعة حولَ الشعلة، بدأ الناس يقتربون من رجال الدين لمعايدتهم، وتقبيلِ أيديهم احترامًا، فيما ابتعدتُ عن الجموع مُتَّجهةً إلى مدخل لالش، قبّلتُ العتبة وجانبيْ البوَّابة، تخطَّيتُ العتبة إلى الداخل، من دون أن أمسّها بأقدامي، ربطت طرف إحدى الأقمشة الملوَّنة المتدلِّية من ضريح شيخ آدي لأطلقَ أمنيتي(١)!

أشعلتُ بعضًا من الفتائل، ليملأ نورها الأمكنة المظلمة بقلبي، ورحلت.

وسطَ هذا الليل المظلم، فكَّرتُ كم انتظرنا شروقَ العيد

(١) على ضريح الشيخ عديْ بن مسافر (شيخ آدي) أقمشة ملوَّنة مقدَّسة، يؤمن الإيزيديُّون بأنَّ من يربط عقدة من تلك الأقمشة ويتمنّى أمنية، تتحقَّق أمنيته بمجرَّد أن يفكّ شخص آخر هذه العقدة، دون معرفته بهويَّة صاحبها، ثم يعقدها ثانيةً ليتمنَّى أمنيته.

طويلاً، لكنَّه مرَّ مسرعًا. . يومٌ كباقي الأيَّام، أتى إلينا بالفرح، ضيفًا لآخر مرَّةٍ ربَّما!

دفقتُ كثيرًا من الماء أمام عتبة البيت، لأُزيلَ بقايا الدماء المُتجفِّفة، من أضاحي العيد الصباحيَّة، ثم لملمتُ ألعاب أخي «شفان» من الحديقة. وكنستُ الأرضَ بعد يوم مليءٍ بالزينة، وأقدام المهنِّئين بالعيد.

أقدامُ خالتي كوري آخر من زارتنا، خرجتْ ضاحكةً من غرفة الجلوس. تُمسكُ يدَ أمِّي وتهمسُ لها بسرِّيَّة:

ـ أتمنَّى أن تفرحي بيوفا في العيد القادم.

تركتُ المكنسة تستريح، وقلت لها:

ـ خالتي، لا أريد الزواج ولم أكمل دراستي بعد.

شدَّتْ على يد أمِّي ولوَّحَت بها في الهواء قائلة:

ـ هذه أيدينا لم نُمسك بها لا قلم ولا فرشاة، ممَّا تشكو؟ هاه!

واقتربتْ منِّي هامسة:

ـ أما زال ببالك؟

هززتُ لها برأسي دون أن أنظرَ بعينيها.

غمرتني وهي تُضيف بأذني:

ـ إنسي أمر ذلك الشابّ.

ثم كمشت كتفيّ، وبصوتٍ يضجُّ بالنصيحة:

ـ يا ابنتي، إنَّه من طبقة وأنتِ من طبقة[١]، ديننا وأعرافنا حرَّموا هذا الزواج.

وخرجت من الباب ناطقة بجملتها الأخيرة:

«أتمنَّى أن ينعاد عليكم بالصحَّة والخير».

لم تكن هذه الجملة تلفتُ انتباهي من قبل، كنت أعتبرها مجموعة كلماتٍ تُقال بحكم العادة.

إلَّا أنَّني لم أنسَها أبدًا. في كلِّ الأيَّام التي تلَت هذا اليوم، رافقتني كتعويذة!

انتهى يوم العيد من حياتنا جميعًا، وما إن مالت الشمسُ على كتف جبل سنجار، حتى اختفت فجأةً، كأنَّ شيئًا ابتلعها!

رغم إدراكي أنَّ سيروان لن يهاتفني هذه الليلة أيضًا، ككلِّ ليالي الشهور السابقة.

لكنَّ لهفتي لم تتعب من التأرجح بين عينيَّ وشاشة هاتفي،

---

(١) تُقسم الديانة الإيزيدية أتباعها وفق نظام معيَّن من الطبقات، وضعت أسسها من قبل عديْ بن مسافر نفسه. هناك ثلاث طبقات رئيسيَّة وهي كالتالي:
ـ طبقة الشيوخ: هي الطبقة الأكثر تبجيلاً، والتي ينحدر أعضاؤها من الشيوخ الذين تجلَّت بهم الملائكة الستَّة.
ـ طبقة البير: وتعني بالكرديَّة «العجوز»، وينحدر أعضاؤها من بير علاء، وهو أحد أصحاب عديْ بن مسافر.
ـ طبقة المريد: يمثِّلون غالبيَّة الإيزيديِّين، حيث إنّ كلّ من لا ينتمي لإحدى الطبقتين المذكورتين أعلاه، فهو من طبقة المريد.
* يحرَّم الزواج بين هذه الطبقات، وإن حدث، يهرب الشابّ والفتاة إلى مدينة أخرى أو بلد آخر، لأنَّهم يُنبذون إلى الأبد من المجتمع.

علَّه يأتيني بصوته صارخًا بجنون متتالٍ: أحبّكِ يوفا، أحبّكِ يوفا..

ثلاث وعشرين مرَّة.

هبط الليل الداكن باكرًا على كلّ قرى الجبل، تعانقت الرموش لآخر مرَّة بسلام، وغفتْ عيون الجميع.

لم تزرنا الأحلام في تلك الليلة، بقيَتْ تقفُ فوقَ قضبان الشبابيك.

رشقاتُ رصاصٍ متطاير، كسَر سكون اللحظات الأولى للشروق، هببتُ من فراشي كمن لسعه عقرب.

يحاولُ أبي من خلف النافذة استكشاف ما يحصلُ في الخارج.

أهو بركانٌ وُجد بهذه المنطقة فجأة، وانفجرَ الآن؟

التحمتُ بأمِّي، أحاولُ أن أهدأ، مسَّدتْ بيدها على شعري، فلاحظتُ أنَّ يدها ترتجف أكثر منِّي.

سيجارةُ أبي بفمه، تشتعلُ، وترمي برمادها على قميصه، لم أَرَ أبي بهذا الحال، إلَّا عندما وقع أخي من على سطح البيت، وكنَّا ننتظر عودته للحياة، لكنَّه لم يعد.

فتح أبي الباب، وخرج إلى الحديقة مُستطلعًا، وكمن فتح باب جهنَّم علينا من غير قصد!

ترافقَ مع الرشقات صيحاتُ الله أكبر، الله أكبر.

دخل مسرعًا، أوصد الباب، إلَّا أنَّ باب جهنَّم بقي مفتوحًا.

ـ يجبُ أن نخلي البيت، الآن، إنَّهم قادمون، ردَّدها أبي تكرارًا.

تصرخُ أمِّي من الخوف:

ـ أين نذهب يا رجل؟

ـ إلى الجبل.

على عجلةٍ من أمره، رمى أبي سيجارته أرضًا، قرب سريره، ألمح بداخل عينيه ماردًا منكسرًا، رغم مكابرته، ومحاولته السيطرة على الدخان المتطاير من جلده المحترق مع سيجارته!

اجتزتُ باب غرفته بعدَّة خطوات متباطئة، إلى أن أصبحتُ أتنفَّسُ دخانه:

ـ أبي ماذا يحصل؟ لماذا يهاجموننا؟

ـ أنا بقربكم ومعكم.

أطفأ قليلاً من ناره حين غمرني، تقوقعت بين ذراعيه كفراشة تختبئُ بين طيَّات شرنقتها، وما أحزنني بتلك اللحظة الهاربة، أنَّ الشرنقة لا يمكنها البقاء إلى الأبد!

لبسنا ما خفَّ وزنه، وأخذنا ما غلا ثمنه، وخرجنا من بيتنا.

أبي أوَّل من خرج مسرعًا إلى الشارع، لملاقاة الجيران الذين تجمهروا بالقرب من بيوتهم.

أمِّي تحمل أخي شفان، ذا السنوات الستّ، وتركض به نحو خالتي كوري، التي أراها مذعورةً، لأوَّل مرَّة بحياتي.

أغلقتُ الباب، وبقي المفتاح معي.

لم أعلم إن كنتُ سأفتحُ هذا الباب مرَّة أخرى أم لا!؟

لا أدري لماذا شعرتُ بشيءٍ غريب يتطاير فوق رأسي، كغراب لا تراه العين، يُنذرُ بالشؤم.

ناداني سيروان، التفتُّ إليه بكلِّ حواسِّي، كمن أنقذ خيالي من مخالب الغراب.

اقترب منِّي مهرولاً، لاهثًا، وقال بأسى عميق:

ـ ستذهبين مع أهلك إلى الجبل، الآن.

أنظرُ إلى وجهه، كأنَّنا لم نفترق كلّ تلك المدَّة، قلت له:

ـ تعال معنا.

ـ لا يمكنني يا حبيبتي، سأبقى لحماية المزارات.

حبيبتي! ما زال يقول لي حبيبتي؟

مسكَ يدي، كأنَّه لم يفلتها كلّ تلك المدَّة، ما زالت دافئة. قبَّل كفَّيّ بأنفاسه الساخنة نشر دفئًا غريبًا بأطرافي المتجمِّدة.

بحثت عن شيء لأقوله، لم أجد!

الصيحات تعالتْ مجدَّدًا: الله أكبر.. الله أكبر..

كأنَّها بالحيِّ القريب.

دفشتُ نفسي إلى أحضانه، متناسيةً كلّ العادات، لم آبه إن أحد قد رآني.

وغاب عنِّي أنَّنا منفصلان منذ شهور.

لم أفكِّر بشيء في تلك اللحظة، سوى أنَّني أريد أن أذوب بقميص سيروان، وأبقى بداخله.

نظرتُ إلى عينيه، من بعد أن انسحبت من أحضانه، وقلت له:

ـ لا أريد الذهاب، أشعر أنَّني ربَّما لن أعود إلى هنا.

نطق بصوتٍ يكادُ يُسمع:

ـ سنعود.

لم أصدِّقهُ، لأوَّل مرَّةٍ بحياتي.

أدرتُ قلبي للبيت، إلى أن لامست أقدامي النار المستعرة في الشارع. كلّ الجيران متجمِّعون، كيوم القيامة، يستعجلُ الرجال بتأمين السيَّارات، والنساء يحملن بُقجًا تحوي قليلاً من الزاد، وكثيرًا من الحيرة والقلق.

من ورائي، دون أن يشعرَ به أحد، همس لي سيروان:

ـ أرنبتي.. يا صداعًا لا يمكنني الشفاء منه.

جملته المُحبَّبة هذه تستفزّني ـ لصغري أمام قامته الطويلة، كان يختم بها كلَّ رسائله الهاتفيَّة. مضت شهور لم أقرأها، والآن أسمعها قريبة، رطبة، كالندى بعد أوَّل شتوة.

ابتعدَ مع مجموعة من الشبَّان والرجال، باتِّجاه المزارات القائمة في أعلى تلال القرية.

أردتُ أن أناديه، لكنَّني لم أجرؤ. كنتُ أريدُ أن أقولَ له

شيئًا، بقيَ يُمزِّق شفتيَّ، مُستغيثًا بأن أُطلقَه:

يا ليتني هربتُ معكَ منذ سنين!

وكأنَّهم اتَّفقوا على الهروب، بلحظةٍ مصيريَّة، لا تستدعي المشاورات.

سيَّارة أبي بيك أب، يُحمِّلُ فيها الخضار من أرضنا إلى السوق ليبيعها، لذا استوعبتْ عددًا من الهاربين معنا.

أتطلَّعُ إلى الوجوه، كأنَّني لا أعرفهم.. كم يُغيِّر الخوف من ملامح الإنسان؟

أبي الذي لا يطيق السرعة، يمشي بأقصاها، يريدُ فقط الاختباء من الذئب.

لكنْ، يا أبي كثيرة هي الذئاب.

استوقفتنا أربع سيَّارات رباعيَّة الدفع، عند مفرق القرية، لم يستطع أبي حيال ذلك فعل شيء، إلَّا محاولته الالتفاف، وتغيير مسار الطريق للجهة الثانية من القرية.

ما عدت سمعت شيئًا، إلَّا رشقاتِ نارٍ، كعويل امرأة على وشك الولادة.

غطَّت عينيَّ ذبذباتُ الغبار، الذي أحدثته دواليب سيَّاراتهم، التي استطاعت أن تلحق بأبي، رغم إصراره على إنقاذ من معه.

إحدى السيَّارات أصبحت بمحاذاة البيك آب تمامًا.

ولأوَّل مرَّة، أرى وجوههم. حملقتُ بهم، سرَت في جسدي قشعريرة.

كانوا قبيحين جدًّا!

توقَّف أبي مرغمًا، ترجَّلوا من سيَّاراتهم، كانوا بالعشرات، بالمئات، بالآلاف، لا أدري! ملثَّمين بجلبيَّات وبناطيل، أحاطوا بنا من كلِّ الجهات.

الكلّ صامت، إلَّا الأطفال، يصرخون كأنَّ مغصًا أصابهم، أو ربَّما شعروا بما شعرت به، ولديهم الجرأة أكثر منِّي ليرفعوا أصواتهم.

اقتربَ أحدهم من باب أبي، فتحه آمرًا إيَّاه بالنزول.

تقدَّمَ بعضُ العناصر من الرجال الباقين بالبيك آب، وبدأوا بشدِّهم من ثيابهم، محاولين تنزيلهم بالقوَّة.

قال أحدهم بسخرية: «تفضَّلوا».

عرفتُه، إنَّه أبو خالد، لديه مزرعة دجاج، وعلى علاقة ودِّيَّة مع أبي، كان كلَّما تعطَّلت سيَّارته، يزورنا طالبًا من أبي مساعدته بنقل البيض إلى السوق.

قال له أبي:

ـ نحن جيران منذ أمد، وأهالينا تقاسموا الحياة بالسهل والصعب سويًّا.

ـ إن دخلتم دين الإسلام نحتسب الجيرة، وإن بقيتم كَفَرة فلن تبقوا حتى أحياء.

ـ كان للنبيِّ جارٌ يهوديّ يا أبا خالد.

ـ أنتم أسوأ من اليهود، على الأقلّ اليهوديّ صاحب كتاب،

يعبد الله، وليس الشيطان.

أمروا الرجال بالوقوف صفًّا واحدًا، وأيديهم مرفوعة فوق رؤوسهم.

أحد العناصر أخذ مكان أبي للقيادة، ومجموعة وقفت في الخلف، فوق رؤوسنا.

لم أرفع نظري للأعلى، كنتُ متسمِّرةً بكلِّ أجزائي، حتى أنفاسي حاولتُ قطعها، وبقيتُ أجولُ بصري على أرجلهم، التي بدتْ لي كأرجلِ ديناصورات، يُفترض أنَّها مُنقرضة!

حاولتُ الوصولَ إلى ثوب أمِّي، شددتها به، فالتفتت إليّ، قرّبتُ رأسي إلى صدرها مع أخي.

وكمن يتلو بيان، قال قائدهم:

لم نأتِ إليكم لنؤذيكم، نُريدُ منكم أن تدخلوا الإسلام.

الدولةُ الإسلاميَّة أصبحت المسؤولة عن هذه الأراضي والقرى، يجبُ عليكم إطاعة شرع الله.

طنينٌ يتخبَّطُ بين جدران أُذني، ماذا يقول هذا؟ كيف يطلبُ، أو يأمرُ بدخول الإسلام؟!

ثم كرَّرَ كلامهُ بحدِّيَّة أعلى، مُشيرًا لعناصره المنتشرين، بضرب الرجال.

رأيتُ أبي يرتمي أرضًا. مع ذلك، حاولَ أن يمدُّنا تماسكًا بنظراته.

إلَّا أنَّني لم أطمئنّ، بل كنتُ أشعر بالغراب يحطُّ فوقَ رأسي، ويستقرّ!

فجأةً، انطلق البيك آب فينا، وقعتُ على جنبي بمحاذاة قدم أحدهم، تجلَّستُ مسرعةً، وبقي نظري يشبُّ بعيدًا، على الطريق الملتوية، لأعرف مصير أبي.

إلَّا أنَّ الغبار الكثيف حال دون وصولي إليه، ولو بعينيّ!

ـ ٢ ـ

يمرُّ على الإنسان لحظة، ربَّما لا تتكرَّر، مهما حيا وطال عمره، وكيفَ يُعقل لهذه اللحظة أن تُغيِّر مسار حياةٍ كاملة؟

في غرفةٍ، فيها ما لا يزيد عن عشرين مقعداً، ألقوا بنا. كنَّا أكثر من مئتي امرأة إيزيديَّة، من مختلف قرى سنجار.

أخذوا الهواتف والذهب، أقراط آذانهنَّ والعقود حول رقابهنَّ، وخواتمهنَّ من أصابعهنَّ، حتى محابسهنَّ!

كاد أن ينخلع إصبعي، وأنا أشدُّ على الخاتم، الذي أهداني إيَّاه سيروان، إلى أن سحبه أحدهم منِّي بالقوَّة، ودسّه بجيبه.

ابتعدتُ عن أمِّي. واقتربتُ من الشبَّاك الذي يتوسَّط الحائط الكبير، حاولتُ إخراج رأسي، علَّني أُدخلُ الهواء إلى صدري، ولكنَّ الهواء في مثل هذه الأيَّام من آب يكون ثقيلاً، ويحمل الكثير من الغبار.

سرحَ نظري بملعب المدرسة، وتخيَّلتُ الأولاد كيف كانوا يركضون بفنائه، وكيف لهذا المكان أن يحمل السعادة لأحد، والآن التعاسة لأحد آخر؟!

كما أفعلُ دائمًا، أستعينُ بذاكرتي لأنتشلَ نفسي من الخوف، أستحضرُ وجه سيروان الجميل الذي أعشقُ خطوطه، مضتْ شهورٌ لم أره فيها أبدًا.

إلَّا أنَّه بقيَ مزروعًا بنفسي، كوردة لا تُزهر ولا تموت. لكنَّها ما ملّت تبحثُ عن ماء!

واليوم، وُلِدَ جنين خوفه عليّ، ولكنْ بطلَقٍ ناريٍّ، أتى ليراني، نعم أتى إليَّ، وقال لي: «حبيبتي».

كأنَّه الآن أمامي، يركض بهذا الملعب كالمراهق، ويُرسل لي قبلات تقتحم الشبَّاك، تسحبُ الهواء، ثم تُعيده إلى صدري.

صراخُ الأطفال، بكاءُ النساء، أعادا رأسي إلى الداخل. تنحشر النساء فوق بعضهنَّ بعضًا، ولا يعلمن كيف، بغمضة عين، أصبحن هنا، في صفِّ العاشر «أ»، مدرسة الأزاهير، تلَّعفر.

أخذتُ أخي شفان من يده، أحاولُ إلهاءَه، اقتربتُ به إلى اللوح الأخضر، علّني أجد طبشورًا، فأرسمُ له كما أفعل دائمًا، في بيتنا.

إلَّا أنَّني لم أجد إلَّا كتابات باللغة العربيَّة، للتلاميذ الذين ودّعوا صفَّهم في نهاية العام الماضي، ما زال بعضها واضحًا:

«وداعًا الآن، وإلى الحرِّيَّة بعد قليل».

جملةٌ شدّت على عنقي حبلَ الخوف من المجهول الآتي.

ألقيتُ ظهري إلى حديدة المقعد، قرب خالتي كوري. أسدلتُ جفوني نحو الأرض، ومن دون أن يشعر بي أحد، احترقَتْ وجنتاي بالكرات الصغيرة، المتدحرجة من داخلي المشتعل، إلى بلاط الصفِّ الغريب البارد.

وبعد مضيِّ ساعاتٍ طويلة من البكاء، والأسئلة، والصراخ الذي يثقب الروح، تعبَت النساءُ من اللاجدوى، ونام الاطفالُ هربًا إلى أحلامهم.

انزرعَ الصمتُ كنبتةِ الصبَّار بحلقِ كلِّ واحدة!

هذا البابُ الخشبيّ، منذ إغلاقه، لم يُفتَح بعد! هل نحن سجينات؟

الهدوءُ المُخيف يتمشَّى عبر الأجساد، المُلقاة كأكياس قمح، دون حركة، دون نَفَس، على الأرض وبين المقاعد.

رغمَ كثرةِ العدد، إلَّا أنَّني كنتُ أستطيعُ سماعَ تنهُّدات الجميع غير المُنتظمة، ينتظرن فتحَ الباب، وفكّ الأغلال القابضةِ على الهواء، فيتنفَّسن مجدَّدًا.

كانت الآمال ما زالت حيَّةً بالنفوس، ربَّما نعودُ اليوم إلى دارنا، نُلاقي رجالنا، نُحضِّر العشاء، نُعدُّ القهوة، وننامُ تحتَ سقفٍ واحد.

ليأتي لنا الصباح التالي بأقداح النسيان، فنكمل حياتنا كأنَّ شيئًا لم يكن!

ولكنَّ الآمال تكونُ أحيانًا كثيرةً من سلالة المستحيل المقدّس!

التفتُّ نحو أمِّي، وجدتها تحتضنُ أخي الغافي، تقرأ فوق رأسه أدعية، تطلبُ من طاووس ملك[1] أن يحميه.

همستُ بأذن خالتي كوري، دون أن أوقظ السكون، الذي بات كحبَّة مُخدِّر للجوِّ:

ـ إلى متى يُعقل أن نبقى هنا يا خالتي؟

ـ لستُ أدري يا يوفا!

ـ هل كلّ ما يُريدونه أن ندخل الإسلام؟

حدَّقَتْ بي، كأنَّها رمتني بقذيفةٍ دوّى صوتها بكياني، ثم تمتمَت بنبرة جازمة:

ـ على ديننا سنبقى لتموت الشمس.

بين كلِّ حين وحين، أقدامٌ تتراكضُ بالممرّ، وأصواتُ نساءٍ أُخريات بالغرف المجاورة، تعلو وتنخفض.

تحوَّلت المدرسة إلى سجنٍ للنساء!

كيف يمكنُ للمدرَّج الذي يوصلُ إلى النور، أن يصبحَ الآن سردابًا تحشوه الظلمة، والإرهاب، والتطرُّف؟!

حرَّضَ الجوعُ الأطفال على الاستيقاظ، تعالى التأفُّف والمطاليب تباعًا، فالأمعاءُ الصغيرةُ خاوية.

وقفَت أمُّ مُراد، تُحاول تليين عظامها. لفّت غطاءها الأبيض

---

(١) طاووس ملك: الشخصيَّة الأساسيَّة، والأكثر شهرة في الديانة الإيزيديَّة، يرى الإيزيديُّون أنَّ الله أمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم، سجدوا كلُّهم إلَّا طاووس ملك أبى، ولم يسجد، وقال: كيف أسجد لغيرك، وأنت الذي أوصيتني أن لا أركع إلَّا لجلالتك. فكافأه الله بأن جعله رئيسًا للملائكة.

على رأسها، وأحكمت الشالك ليبقى مرتَّبًا، وقالت:

ـ من الصباح لم يأكل أحدٌ منَّا، والأطفال جاعوا، نحن كبار نتحمَّل، إلَّا أنَّ الصغار لا طاقة لهم لتحمُّل الجوع.

أخذَت تُخبِّط على الباب الأصمّ، الذي لا يخترقه الصوت إلى الجهة الأخرى، وتصرخُ بكلِّ ما أُوتيَت من قوَّة.

لمعت برأسي صورتها، تحرثُ أرضها، تشدّ الرسن للبغل بقوَّة.

جدَّة لثمانية أحفاد، ولها من أحفادها ثلاثة أحفاد.

انفتح الباب بسرعة، جعلها تضرب بالحائط. لملمَت نفسها، كمصارع أتته الفرصة المناسبة ليلقِّن خصمه درسًا، ويبرحه بضربة قاتلة.

إلَّا أنَّها لمّا رأت عشرة رجال يدخلون كالثيران الهائجة، جمّدت جسدها، ولم تنبس بكلمة.

اسودَّ اللوحُ الأخضرُ بأربعةٍ منهم، انصفُّوا أمامه، والباقون توزَّعوا قرب الباب وبيننا. لهجاتهم خليطٌ من كلِّ الدول العربيَّة.

من بينهم اثنان من الذين أسرونا، عرفتهما، لم أنسَ وجهيهما.

خطوتان، تقدَّم الرجلُ الذي يقف على يمين الباب، بدا كأنَّه قائدهم، وقال بصوت جافٍّ، مُتشقِّق:

ـ أنتنَّ الآن من أملاك الدولة الإسلاميَّة، غنائم يعني. يجب عليكنَّ أن تدخلن الإسلام لكي تُصبحن مسلمات. هذا شرع الله.

مسكتُ كفَّ أمِّي وشددت على أصابعها، فكبسَت على كلِّ أصابعي، محاولةً سحبَ خوفي لينسكِبَ بخوفها. وبكفِّها الآخر، تحجُبُ عينيَّ أخي لكي لا يرى ما يحدث من حوله.

انتظرَ ثواني، قبل أن يُفرغ ما جاء يقوله، وأكمل المشي باتِّجاه اللوح المدرّع.

رشَّ فوق رؤوسنا نظراته المتعالية المتوحِّشة، فتحَ شفتيه الغليظتين، فبانت أسنانه كأحجار عتيقة مغبرَّة، ونطق بنبرةٍ مُستعجلة:

ـ من بعد أن تدخلوا الإسلام، إن شاء الله، ستتزوَّجن من مقاتلي دولتنا.

كمن سكَبَ سطلاً من المياه الحارَّة الملتهبة على جسدي، اختفت حواسِّي، ما عدتُ أستطيعُ إيجادَ بصري.

انلزقَ لساني بسقفِ حلقي، كيف أكونُ حلالاً لهؤلاء الغرباء المجرمين، وحرامًا على حبيبي؟

في كلِّ مرَّةٍ، كنتُ ألتقي سيروان في ملجأنا السرِّيّ، البيت المهجور الذي انتقيناه من بين عدَّة بيوت مهجورة أعلى القرية، يجولُ بي في أنحائه، مهندسًا ديكورات الغرف، على ذوقه.

«هنا غرفة النوم، يقولها وهو يغمز لي.

وهذا المطبخ، سوف نضع طاولة للأكل عليها شرشف أخضر، من لون عينيكِ».

مُقبِّلاً جفوني، ثم بحماس يسحبني وراءه مكملاً رحلته إلى

غرفة الجلوس، ويتخيَّل، ويتخيَّل كيف يمكن أن يكون شكل بيتنا..

يتوقَّف، يشدُّ على يديّ قائلاً بثقة:

ـ حُبُّنا حلال، سوف يكسِرُ حُرمةَ تحريم زواج الطبقات.

أردُّ عليه بصوتٍ بلا أمل:

ـ سأذهب لأقولَ لأبي، إنَّني أحببتُ شابًّا من طبقة البير، فيموتُ بسكتة قلبيَّة فوريَّة.

وأنتَ أخبر أبيك، أنَّك تريدُ الزواج بفتاة من طبقة المُريد، ليقطِّبَ حاجبيه العريضين، ويحرمك من كلِّ شيء. حتى المال الذي تريده لصيدليَّتك.

ـ لا أريد مالاً، سوف أعمل وأبني نفسي معك، لكنْ قرِّري، وكلّ ما تبقَّى غير مهمّ.

هذا الحديث يتكرَّر بيننا، في كلِّ مرَّة نلتقي، وفي آخره يقول لي بترجٍّ:

«فلتهربي معي يا يوفا».

الآن أوبِّخُ نفسي بقسوة: يا ليتني هربتُ معكَ يا سيروان!

طرقَ سمعي انفعالُ النساء اللواتي احتججن رافضات لما قاله، وعلَت المشاجرةُ، يتخلَّلها بكاء بعضهنَّ، وصُراخُ الحناجر الثائرة للأخريات.

دوّى صوتُ خالتي كوري بالضجيج، كرعدٍ وسط زمامير السيَّارات، لا شيء يُخفيه:

ـ بناتنا لا أحد يمسّ طرف ثوبهنَّ، ولا أحد منكم سينالُ شعرةً من رؤوسهنَّ.

أسرعَ إليها رجلٌ طويل نحيف، ليُسكتها بدفشة وقعت إثرها على النساء أرضًا.

حاول الوصول إليها لينتزعَ الغطاء الأبيض لشعرها، إلّا أنَّ النساء من حولها غلَّفوها بأجسادهنَّ، ممَّا منع ذراعه من ولوج هدفها.

خبطَ قائدهم ببندقيَّته على البلاط ضرباتٍ متتاليةٍ، ونهرنا بجعرةٍ أيبست الدم الفائر بعروقنا:

ـ غدًا، سآتي إليكنَّ لأعرف جوابكنَّ، هل ستدخلن ديننا أم ستبقين كفرة!؟

خرجوا جميعًا، وأُقفلَ البابُ من جديد على بركانٍ يتقاذفُ حممه بكلِّ قلب.

سينتزعون إلٰهي من جوفي، ليرموا لي بإلٰههم، كحجارةٍ تُرمى ببئر ماء!

ما أقساها من ليلة! يفترشُ جسدي البلاط، وتفترشُ كلُ الآلام نفسي.

الليلُ في الخارج كئيب، من ظُلمته تُخلقُ غربان، وتتطاير فيَّ.

والنور حتى لو سطع من جديد غدًا، كيف له أن يدخلَ إلى هذه الغرفة؟

والسياج بات مرتفعًا بيني وبين العالم الآخر.

اللَّاحركة واللَّانفس يُشعران كلَّ واحدةٍ منَّا أنَّها لوحدها هنا.

ماذا ينفعُ الكلامُ بحالة كهذه؟ يُثقل التفكير، يُتعب اللسان، من دون نتيجة. الطاقات التي كانت في النساء صباحًا همدت، مع هبوب أوَّل نسمات المساء، والتصادم مع الواقع المرير، أنَّنا سنبيتُ الليلة هنا وليس ببيوتنا التي تبعدُ بضعة كيلومترات، قياسًا للمسافة بين قرانا وتلّعفر.

إلَّا أنَّ بيوتنا القابعة مكانها تبتعدُ عنَّا، كلّ ما مرَّ الوقت ونحن هنا!

مددتُ يدي إلى جيبي، وتلمَّستُ مُفتاح بيتي، أمرِّرُ أصابعي على أسنانه المتعرِّجة، كأنَّني أمشي بممرِّه، وصولاً إلى المطبخ، حيث تغرق أمِّي بروائح طبخها الشهيّ، وينهمك أبي بحسابات بيع الخضار والفاكهة على الطاولة بجانبها. يكسرُ هدوء البيت، ركضُ أخي شفان بين الغرف، ثم ألفُّ وأدخل غرفتي، أستلقي على سريري، أهاتفُ سيروان، لأسمع اعترافه اليومي: «اشتقت إليكِ».

شددتُ على المفتاح براحتي، كأنَّي ابتلعته، وذاب بلحمي!

غبتُ عن كلِّ شيء، شعرتُ بنَفَس أمِّي على وجهي، تهمس لي كما كلِّ صباح:

ـ يوفا حبيبتي، استيقظي.

فتحتُ عينيَّ على نسيانٍ احتلّ ذاكرتي لثوانٍ، ظننتُ أنَّني كنت بكابوس.

إلَّا أنَّ الجدران من حولي، أصوات النساء، همهماتهنَّ،

الروائح المنبعثة من الأطفال، أيقظتْ وعيي، وحواسِّي، وخيبتي.

نعم، أنا هنا. إنَّه الكابوس الحقيقيّ الذي أحياه!

وقفَت خالتي كوري في زاوية الصفِّ. بطريقة عفويَّة، التفتنا إليها. وضعَت يدها على صدرها، وقالت:

ـ لا يجب أن نخضع، ولا يجب أن نسمح لهم بإذلالنا، أيَّتُها النساء. الخوف يحاصرنا جميعًا.

توقَّفت لحظة، وبنبرة قويَّة صامدة، تابعت:

ـ ٧٤ إبادة(١) لليوم، والأجنَّة بأرحامنا لا شيء يردَعُ ولادتها!

بعد مدَّة، أنذرنا صريرُ غلّ الباب بقدومهم، دخل خمسة عشر رجلاً، بعضهم لأوَّل مرَّة أراهم، وآخرون من القرى المجاورة لسنجار.

قال أحدهم، وكان عبوسًا، ملامحه قاسية، يتوسَّط جبينه خطَّان بارزان لشدَّة نفورهما:

ـ ستدخلن اليوم بالإسلام، وهذا الخيار الأفضل لكنَّ، وإلَّا سنطبِّقُ عليكنَّ الحدَّ الشرعيّ للكَفَرة.

قال له أحد العناصر بنبرة حقيرة:

ـ أميري، ألن نتزوَّجهنَّ أيضًا؟!

ابتسم القائد، الذي تبيَّن أنَّه أمير، ابتسامةً غرست سكِّينًا بكلِّ

(١) تعرَّض الإيزيديُّون عبر التاريخ إلى ٧٣ إبادة، وفي ٣ آب ٢٠١٤ تعرَّضوا إلى الإبادة الـ ٧٤ على يد تنظيم الدولة الإسلاميَّة.

واحدةٍ منَّا، ومن دون أن يكبحَ شهوته، فلّت نظراته لتشبعَ من أجسادنا، وقال:

ـ بلى، أكيد، إنَّهنَّ غنائم الخلافة، سنتزوَّجهنَّ!

قالت له خالتي كوري، وإن بدا صوتها مرتجفًا:

ـ ديننا لا يسمح بذلك، فتفهَّموا هذا الأمر.

وتشجَّعت أمّ مراد مضيفةً على ما تقدَّم:

ـ إنَّهنَّ متزوِّجات، لا يستطعن الزواج.

فردّ أميرهم ببرود يحاول اصطناعه:

ـ لقد قتلنا كلّ رجالكم، وهذا يعني أنَّكنَّ أصبحتنَّ أرامل، والأرامل يُمكنهنَّ الزواج.

تداخلَت الأصوات، فبعضها يعلو، وأخرى تتمتم. تضامنت الحناجر بنداء موحَّد: «يا طاووس ملك».

ثم أخذت تعلو الهتافات بتحدٍّ أكثر: «يا طاووس ملك.. يا طاووس ملك».

أشهروا بنادقهم بوجه كلماتنا، مهدِّدين بإطلاق النار على أفواهنا لاغتيال طاووس ملك فيها!

تدافعوا نحونا يركلوننا بالأرجل، بأخمص البنادق على رؤوسنا، ورذاذ ريقهم يهوي على مسمعي بأبشع المسبَّات والإهانات.

بلمح البصر، كالموتِ حين يأتي للإنسان، انتشلوا من بيننا النساء الكبيرات سنًّا، اللواتي كنَّ بحدود الثمانين امرأة،

شحطوهنَّ على الأرض من شعرهنَّ.

حاولت وأمِّي إنقاذ خالتي كوري، شددتها من كُمّ الشالك فتمزَّق، والوحش الذي كان يسحبها، أخذ يدوس على أيدينا كدبَّابة تسحق دجاجة.

أُغلق الباب مرَّةً أخرى على كارثةٍ أفظع، وحال أسوأ.

برزَت أظافرُ الخوف على كلِّ الوجوه.

هل مات رجالنا فعلاً؟ إلى أين أخذوا الكبيرات؟!

الكلُّ يصرخ، لا أحد يسمع! ذلك مفعول الذعر حين يقبضُ على القلوب.

إلَّا أمِّي صامدة، عيناها منكَّسة إلى الأرض، شفتاها مفتوحتان نصف فتحة، أخي بين يديها، يحاول أن يتجلَّس، وهي تشدّ عليه ككمَّاشة.

أعرف أمِّي حين تدخل بهذه الحالة من الذهول.

منذ مات أخي، لم تعد تقوى على القهر، بعد أن غلبها، ودمّرها نهائيًّا.

كيف نُصدِّق أنَّ الحزنَ يولدُ عملاقًا، ثم يأخذُ بالتقزُّم؟

لا، إنَّه يختبئ فينا بمكانٍ بعيد، وعندَ أوَّلِ هزَّةٍ يعودُ بكلِّ جراحه التي كَبُرت في الخفاء، ويُلقي بها على الصدور!

فلّتُ أخي من قبضتها، برَمتُ وجهها إليّ، بأطراف أصابعي، سمّرت عينيَّ بعينيها الغائبتين، وسألتها:

ـ أمِّي، أستطيع أن أُدرك ما إذا كان سيروان حيًّا، أشعرُ به يتنفَّس هنا، بداخلي.

لم تأتِ بحركة، أسبلَت جفونها ثانيةً إلى الأسفل.

هززتُها بقوَّة من كتفيها، وصرختُ بها:

ـ أجيبيني، هل تستطيعين أن تشعري إن كان أبي ما زال حيًّا؟

اختلطَت أصواتٌ غيرُ مفهومةٍ على شفتيها، كحشرجةِ حيوان ينازع.

مات أبي، واندفنت أمِّي بالعذاب.

تدافعنا إلى النافذة، لاستكشاف مصدر الرصاص الكثيف، الذي تعالى في الجوِّ.

رأيتُ عددًا من الكبيرات، أمّ مراد كانت واضحة، لم يطل نظري خالتي كوري.

كانت الواحدة تلو الأُخرى ترتمي أرضًا.

رموهنّ بالرصاص، تسارعَت الجرَّافات إلى تمريغ جثثهنَّ بالتراب المُتيبِّس، الذي لم يرتوِ بعد من دمائنا.

الساعةُ الواحدة ظهرًا، شمسُ آب بهذا الوقت لا ترحم أبدًا.

أوقفونا بالملعب، مع النساء المحتجزات بالغرف الأخرى.

تجاوزنا الخمسمائة امرأة.

يحاوطوننا كحرَّاس بيت النمل، كثيري الحركة، وسريعي الغضب.

مع البنادق الموجَّهة إلينا، أمرونا بنطق الشهادة:

«أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله».

هل أسلمنا فعلاً؟

لمجرَّد أن خرجَتْ هذه الجملة من شفاهنا، والرصاص يتطاير ما بين رؤوسنا والسماء؟

بدأوا بفرزنا بحسب العمر، الصغيرات والشابَّات لجهة اليمين، واللواتي يفوق عمرهنَّ الأربعين إلى جهة اليسار.

أنظر إلى جهة اليسار، لأتفقَّد أمِّي وأخي. لم أجدهما بسهولة لكثرة العدد.

بدَوا لي بعيدين كثيرًا، لا تجرؤ يدي الوصول إليهما.

يضربوننا بعصيٍّ لنحافظ على الصفّ، كراعٍ يجمعُ أغنامه.

الذئب الكبير، أميرهم، ينتصبُ وسط الملعب، ومن حوله ما يفوق الأربعين راعيًا، يعطيهم الأوامر والتعليمات.

أشارَ بيديه لينصتَ الجميع، ثم قال بصوتٍ حادٍّ، اخترق التوهُّج من حول رأسي:

ـ الساحرات الكبيرات تركن لكنَّ رسالة، قبل أن يرحلن إلى الأبد، مفادها أن تتزوَّجن من هولاء الكرام.

مدَّ ذراعه مشيرًا إلى الرعاة من حوله، مطلقًا ضحكات، أعادت اللهب إلى داخلنا المتفحِّم، وملأت الجوّ الحارّ نارًا فوق نار.

أمامي صفٌّ طويلٌ من الفتيات، ورائي كلّ ما مضى من حياتي. وإلى اليسار، ما زال هناك قلبان ينبضان مع قلبي، أملًا بأن يعود بنا الوقت إلى ما كان عليه.

أمِّي وأخي يتعانقان كأنَّه العناق الأخير.

صفّق القائد، ليتابع:

ـ كلُّ الأطفال الذكور الذين تجاوزوا السادسة من العمر، فليقتربوا إلى هذه الدائرة الحمراء.

دائرةٌ حمراء، مخطَّطة على الأرض، تحت عمود لكرة السلَّة الموضوعة عند طرف الملعب.

شهدتُ انشلاع أخي شفان عن صدر أمِّي، ورأيته يتقدَّم مع الأطفال، الذين لا يتجاوز أكبرهم الثالثة عشرة.

بدا مندهشًا بعلوِّ السلَّة، ثم جثا الرجاء بعينيه مكان

الاندهاش. قرأتُ رجاءه: «أعيدوني إلى أمِّي».

التفُّوا مجموعة من العناصر حول الأطفال، يحملون أوراقًا، يُسجِّلون عليها الأسماء والأعمار.

سألَت إحدى النساء:

ـ لماذا فصلتُم ابني عنِّي؟

وبسؤالها هذا، كمن سكبت نفطًا على جهنَّم المتَّقدة بأفئدة كلِّ الأمَّهات.

لم يجبها أحد، حتى إنَّ قائدهم أكمل حديثه مع الرعاة المنبطحة نفوسهم تحت أقدامه.

مزَّقت الأمومة وشاحَ التردُّد، والخوف، عن الحبال الصوتيَّة، وكثُرت الأسئلة.

وعلَت الهمهمات مطالبةً بالردِّ، والتوضيح.

وعلَت العصيُّ، الضاربة على الجناب والرؤوس، من دون رحمة.

بطريقة حادَّة عصبيَّة، قال القائد:

ـ ماذا أصابكنَّ أيَّتُها العاهرات؟!

ثم أضاف بكلِّ فخر:

ـ هؤلاء أشبال الخلافة، سيدخلون الإسلام، ويتعلَّمون القرآن، ويجاهدون في سبيل الله لأجل الدفاع عن ديننا، ودولتنا.

توجَّه بالاستفسار إلى رعيانه:

ـ ألم يجهِّزوا الباصات بعد؟ هيَّا لمُّوا هؤلاء من هنا، وأولئك من هناك.

مشيرًا بيده اليمنى إلينا، وبالأخرى إلى الأطفال.

بتدافشٍ سريعٍ مؤلم، مشينا نحو البوابة الكبيرة، تلعثمَتْ خطواتي، فعينٌ على أخي الخارج مع الأطفال من الباب الآخر للمدرسة. بان عليّ وأنا أبتعد، وهو يبتعد، كحبَّة تمرٍ يُحاوطها الذباب!

وعينٌ على أمِّي التي تنهالُ الضربات عليها، وهي تحاول الوصول إلى أخي، ثم تستديرُ للوصول إليَّ، تنفسخ أمِّي إلى جسدين، بآلاف الأرواح الغاضبة.

بقيَ صراخها يشلُّ قدميَّ الجامدتين عند درج البوَّابة الأخيرة للملعب:

ـ أعيدوا أولادي، يا كلاب، يا حيوانات.

لم يفهموا أيَّة كلمة من أمِّي، فهي لا تعرف العربيَّة، كانت تشتمهم بالكرمانجيَّة(١)، وهذا ما دفعهم لضربها، وليس لقتلها.

تغيب أمِّي عن الوعي، وأغيب عن الإحساس بالمكان والزمان، بآخر نظرة أغرسها وردة على جروح أمِّي.. تقذفُني يدٌ، كمهدَّةِ أحجارٍ خارجًا.

أخرجُ من دائرة الوجود إلى اللاوجود، واللاعدم..

---

(١) الكرمانجيَّة: هي إحدى اللهجات المتفرِّعة من اللغة الكرديَّة، ويتحدَّث بها الإيزيديُّون.

ـ ٣ ـ

أكثر من عشرة باصات كبيرة، بيضاء اللون، كُتب عليها بخطٍّ أزرق عريض «حجّ»، توزَّعت أمام المدرسة.

قسَّموا الفتيات إلى مجموعات، على رأس كلِّ مجموعة قائد، وتمَّ تسجيل أسمائنا، وأعمارنا، وُزِّعَت على كلِّ المسؤولين عن عمليَّة النقل.

ما يُقارب الثلاثين فتاة كنَّا في الباص رقم ٥، تحت اسم مجموعة «أبو جنيد»، التي تحمل كنية القائد نفسه.

على مقعدٍ من الجهة الخلفيَّة، أجلسني أحد العناصر. مسكَ ورقته، وسحب القلم من جيبه، مبحلقًا بي، ليتأكَّد من وجودي، قائلاً:

ـ ما اسمك؟

خرج صوتي بعيدًا، كالصدى من جوفي:

ـ يوفا.

نعرني بالقلم على جبيني، طلب منِّي أن أرفع صوتي أكثر.

لا أدري كيف تشكَّلتْ الحروف على لساني، كأنِّي ألفظها للمرَّة الأخيرة بحياتي.

تابع:

ـ كم عمرك؟

ـ ثلاثة وعشرون عامًا.

بصيدليَّة القرية الوحيدة، التقيت بسيروان، لأوَّل مرَّة منذ ٣ سنوات، أردت شراء دواء القلب لأبي، وهو كان في فترة تدريب بالصيدليَّة، مع أنَّنا من القرية نفسها، إلَّا أنَّنا لا نعرف بعضنا بعضًا، لأنَّه أتى مؤخَّرًا من أربيل.

وضعت على الطاولة الورقة الطبِّيَّة، وقلت له:

ـ أريد هذا الدواء.

نظر إلى الورقة، و أشار إليّ مستفسرًا:

ـ ما اسمك؟

ـ تقصد ما اسم الدواء؟ إنَّه هنا.

تطلَّع بعينيَّ، وقال بصوتٍ مُحتال:

ـ لا، اسمك أنت.

بحركةٍ خفيفة، تقطّب حاجباي باستفسار.

أضاف، وهو يمدُّ يده ليعطيني عُلبة الدواء:

ـ ربَّما أقترحه كاسم جديد، لأدوية القلب وتصلُّب المشاعر، والشرايين!

لا يمكنني أن أنسى ارتباكي، ورجفتي أمام عينيه العسليَّتين الواسعتين وسع بساتين التين في جبل سنجار.

فور وصولي إلى البيت، حاولت استعادة تقاسيم وجهه، لأرسمه. كان جميلاً.

بعد عدَّة أيَّام، ذهبت مرَّة أخرى إلى الصيدليَّة.

بعدها بتُّ أذهب كلّ يوم، مُتحجِّجةً بأمراض العائلة كلّها.

بعد مضيِّ أشهرٍ على علاقتنا، أعطيته الرسمة، كتبت له أسفلها:

«هذه ملامحك التي نُحتت بذاكرتي، خلال الدقائق الأولى، لن تمحوها السنون أبدًا».

وقفَ أبو جنيد، بالقرب من السائق، تاركًا يده تستلقي على كتفه، وقال:

ـ يا صبايا، نحن بعون الله تعالى سننطلق بكم إلى رحلة جميلة، وأنتنَّ لم تأكلن منذ أيَّام. . هيَّا إفرحن سوف نطعمكنَّ ألذَّ المأكولات بإشارة من رأسه، ثم رمى بحضن كلّ واحدة منَّا سندويشة وقنِّينة مياه.

تفقَّدت المياه لأبلَّ ريقي، المطقطق كأرضٍ عطشى، إلَّا أنَّ المياه كانت تغلي والسندويشة يابسة. . والجوع كافر!

عاد ليكمل كلامه:

ـ «كلوا كلوا»، أنتنَّ الآن سبايا الدولة الاسلاميَّة، ولن تَجُعن بعد اليوم.

سبايا؟ نحن الآن سبايا؟ إنَّها المرَّة الأولى التي أسمع فيها هذه التسمية، غصصتُ بها، وقفَت كاللقمة الكبيرة الجافَّة بحلقي.

ننحشرُ بباص رقمه ٥، ينقلنا إلى عصر حجريٍّ. مدفوعًا بوقود من دموع السبايا، ومن آيات لا تصدأ، مُقدَّسة.

بعد حوالى الساعة من الانطلاق، على طريق طويلة كأفعى، تتلوَّى أمام ناظريَّ، وكالسراب، أرى فكَّيها مفتوحين في آخر نقطة سنصلها تنتظر التهامي.

توقَّف الباص بنا بمحاذاة بستانٍ، ينضحُ بثمار التفَّاح، والتِّين، على طرفيْ الطريق.

أنعش هذا المنظر شهيَّتنا الصفراء الذابلة، فأزهرت من جديد في نفوسنا، مخترقةً النوافذ، سارحةً من دون قيد بين الأشجار.

أخرجَ أبو جنيد رأسه الكبير، نسبة لجسده المائل للضمور، قال لقائد باص آخر:

ـ سنبدأ باللواتي معي. وحين ينتهين، تُنزلون سباياكم. أخبر الآخرين، حتى لا تتداخل الأعداد ويضيع التنظيم.

عاد إلينا بنبرة آمرة:

ـ ستنزلن الآن لقضاء حاجتكنّ، ولا داعي بأن أخبركنَّ أنَّ من تحاول الهرب تكلِّفنا رصاصة، لا غير.

قرب الأشجار الممتلئة بالحياة، والألوان، تبوَّلت الواحدة تلو الأخرى، كنَّا نلتفّ حول كلّ فتاة، حتى تقضي حاجتها، بانين بأجسادنا عازلاً عن عيونهم الوقحة، التي تقدح غرائز حيوانيَّة.

ورغم إلحاحهم الشديد بأن نسرع، تمكَّنَت أيدي الفتيات من

قطفِ التين، دون أن نطال التفَّاح الأخضر والأحمر، الموغل بعمق البستان، على عكس أشجار التين، التي بدت كأنَّها اقتربت إلى حافَّة الطريق، لكي تطعمنا.

بهذه الغلَّة، صعدنا الباص، يشوبنا قليل من الانفراج، الذي ما لبث أن ذاب كالملح بالماء، مع أوَّل برمة للعجلات.

ثمرةُ التين بيدي، أمسح عليها مستحضرةً تين أبي، حين كان يُحضر الصناديق، لنملأها، ويذهب بها إلى السوق، يمسحُ بطرف أصابعه الواحدة تلو الأخرى بهدوء، متباهيًا بلونها وحجمها، وهو يقول بطريقته التي أُحِب:

ـ يوفا، كُلي هذه الجوهرة، التي لا شيء أجمل منها، سوى عينيك يا ابنتي.

تنظر إليه أمِّي مضيفة، وهي تغمز لي:

ـ عيناها حلوة، لأنَّها تُشبه أباها.

تهفُّ علينا روائح الصناديق الخشبيَّة، ممزوجة بروائح تين أبي.

بين ذكرياتٍ جميلة تتمشَّى بخيالي، وواقع يمشي بي إلى اللاأدري، وحبَّة التين العالقة بيدي، ولم أستطع أكلها، تشابكت الأمور برأسي الذي ما عاد يستوعب شيئًا.

ساعة أو أكثر عن البساتين، توقَّف الباص مجدَّدًا، أمام سور كبير، لا يسمحُ باقتحام نظراتنا المستكشفة ما بداخله، لعلوِّه الذي يفوق الثلاثة أمتار.

أنزلونا، وأوقفونا كصفِّ العسكر، من دون حركة، ومن دون نَفَس.

توزَّع العناصر من حولنا، منهم من يُمسك بواريد، وآخرون كالإنسان الحجريّ، يتسلَّحُ بالعصيّ.

اقتربنا من السور، توقَّفنا أمام بوَّابته، كبوَّابات القلاع القديمة. عربشَت عيوني للأعلى، وإذا بنظري يتكمَّشُ بلافتة كُتب عليها:

«سجن بادوش ـ الموصل».

تهبَّطَت كلّ القلاع، التي حاولتُ جاهدةً أن أبنيها بداخلي لتحميني.

بقيتُ بالعراء، أنا الآن سجينة بتهمةٍ مدبوغةٍ على جلدي: «سبيَّة إيزيديَّة»!

انفتحَت بوَّابةُ السجن كاشفة لنا عن أيَّام سوداء، سوف تُحفر بعمرنا ما حيينا.

نادوا كلّ مجموعة على حِدَة، رأيتهنّ يدخلن إلى الصرح الواسع، ثم ما يلبثن أن يختفين، كأنَّهنَّ عبرن بالثقوب السوداء إلى ما لانهاية!

الحارس الذي يقف عند الباب الكبير، يحملُ بيد مكبِّر صوت، وبالأخرى ورقة أسمائنا وأسماء قادتنا، ينادي:

ـ مجموعة ٥، أبو جنيد.

استدار أبو جنيد إلينا، وبأعلى صوته:

ـ هيَّا إلى الأمام، بسرعة.

سار أمامنا كالنمر يجُرُّ فرائسه متباهيًا، الفتيات مُجبرات باللحاق به كمن ليس لديه طريق آخر لعبور الزمن.

بأرجلٍ عنيدة، لا تُطاوع جلدات السوط الذي انهال على كلّ أجزائي، دخلتُ سجن بادوش.

كالبضائعِ التي وصلت للتوِّ، من المرفأ إلى التاجر، جال بيننا مدير السجن، متفقِّدًا غنائمه، مسرورًا بنصر جنوده، راضيًا عن رِّبه أنَّه وفَّقه بما جنوا.

توقَّفَ على مقربةٍ من نظري، مُتطلِّعًا بذهول إلى فتاةٍ شقراء. بدا لي كابن آوى، يحاولُ تقليد الأسد، وتلك الشامة الكبيرة التي تستقرّ تحت عينه اليسرى، تُشعر من ينظر إليه كأنَّ له ثلاثة عيون.

أكملَ المشي لنهاية الصفِّ، دون أن ينظرَ إلى أحدٍ منَّا، وبقي واقفًا في الخلف، دون أيَّة حركة، إلى أن أتاه أبو جنيد، وتهامسا.

لم يطرق سمعي إلَّا كلمة: «بإذن الله».

تقدَّم أبو جنيد، بخطوات تسبق المدير، وكمش الفتاة الشقراء من يدها، جفلَت، فسحبها من ذراعها بقوَّة. ركض عنصران، حملاها، ويد واحد منهما سدّت فمها، فابتلعَت صُراخها.

مهرولاً، وراء فريسته، كرجَ المديرُ إلى الداخل.

شابكت كفّيَّ، كما أفعل دائمًا بلحظات خوفي، وبدأت أفركُ الواحد بالآخر، كحجرين، أطرقهما ببعضهما بعضًا، لأبُثَّ نار الأمان بنفسي.

هل يُعقل أن أكونَ القربانَ التالي لإلٰه شهواتهم؟

في الممرِّ الذي نسلُكه، بإرادةٍ مبتورة، الأضواءُ بيضاء قويَّة، والروائح المنبعثة من وراء الجدران مُقزِّزة.

نزلنا درجات طويلة، والضوء بشكل تدريجيّ شدّ رحاله، لنجد أنفسنا بسرداب شبه مُعتم، لا يمكنني الاستدلال على أيِّ شيء، إلَّا من خلال أنفي، الذي امتلأ عفنًا ورطوبة، وجلدي المُتعرِّض للمساتهم المشوِّكة، لشدّة الحنق المتوالد فيَّ. للحظات، ظننتُ أنَّ الدم انفجرَ من وجهي، تذوَّقته، وإذا هو حبَّاتُ عرقٍ، تساقطَت على رقبتي.

بطريقةٍ غير مُعلنة، توقَّفنا، اصطدمتُ بالفتاة أمامي، ومَن خلفي اصطدمَت بي.

أمام بابٍ حديديٍّ، مُنخفض العلوِّ، لا يتجاوز المتر الواحد، دخلنا ما يقارب العشرين فتاة.

أُقفلَ البابُ القزم بأكثرِ من قفل.

هنا، تحتَ الأرض، درجةُ الحرارة تختلفُ عن الخارج، فهي منخفضة، تُشعرني بالبرد، رغم أنَّنا في منتصف آب، والهواء شبه غائب، أمَّا النور، فيتسلَّل من كوَّة صغيرة أعلى الحائط.

على الأرض أفرشة. اتَّخذت كلّ واحدةٍ منَّا لعظامها واحدًا، رغمَ رقَّةِ سماكته، ووسخه الذي بدّلَ من لونه، وجدتُه مُريحًا، بعد كلّ تلك الأيَّام، التي ما ذقت بها الراحة.

التنقيطُ المُنبعث من المغسلة، يدقُّ على الأعصاب مسامير من التوتُّر.

مع كلّ نقطةٍ تَنزِلُ، تصعدُ الروائحُ النتنة.

كيف يُعقل أن نُدفنَ بباطنِ الأرض، وكلّ ما فينا ينبضُ حياة؟

رغم أنَّه لدينا الكثير من الكلام، والقهر، لنتشارك ونتحادث،

إلَّا أنَّنا صمتنا فترة، محاولين فيها استرجاع كلّ ما حدث. . أين آلت بنا الأقدار!؟ أين نحن الآن؟ أدمغتنا بحاجة لوقت، لتُعيدَ ترتيبَ ما جدَّ عليها.

أوَّلُ ما بادرَ إلى أذهاننا التحدُّث به، عن تلك الفتاة الشقراء، ربَّما لأنَّها جسَّدت لنا ما يمكن أن نلقاه من بعدها!

قالت تاليا بنبرة واثقة:

ـ شيرين لا ترضخ، أعرفها جيِّدًا. منذ كنَّا صغارًا، لا ترضى الانكسار حتى بألعابنا الطفوليَّة.

سألتها:

ـ أنتِ أُختها؟

ـ لا، نحن جيران منذ وُلدنا.

ـ ماذا يمكن أن يفعلوا بها؟ وبنا؟

تردُّ ليلاف، وقد بدت كقارئة فنجان تعلم كلّ شيء:

ـ الظلام، ثم، النور!

ثم تُكمل بنبرةٍ كأنَّها تذكَّرت شيئًا مهمًّا:

ـ ليلة العيد، الليلة التي سبقَت دخولهم إلينا، وجدتُ نفسي بالحلم، أُحاول طرد قطَّة سوداء، جثت على صدري، لكنْ ما كنت أقوى على رفع يدي حتى! وصوتي لا يمكنه الخروج من حنجرتي، تمتصُّ قدرتي، تسيطرُ عليَّ.

ثم تكاثرت إلى مئات القطط، التي غطَّتني، غطَّتني بالكامل، استفقت وأنا أشعر أنَّني أختنق. .

ردَّت تاليا فورًا قائلة:

ـ ها قد تفسَّر حلمك، حلّت الكارثة!

مضت ساعتان أو أكثر، هنا، لا يمكن لنا احتساب الوقت، نحن خارج الزمن. حتى الضوء الخفيف بدأ يختفي، مُعلمًا برحيله قدوم أولى ساعات المساء.

انفتحَت طاقةٌ صغيرةٌ أسفل الباب، لم أكن قد لاحظتُ وجودها بعد، وبدأتْ يدٌ بإدخالِ أطباقٍ للعشاء.

في كلّ طبقٍ، قطعةٌ من الخبز اليابس، قليلٌ من الحبوب الناشفة، لمرور أيَّامٍ على سلقها، وتكرار تسخينها.

تقدَّمت ليلاف إلى الأطباق، المتراكمة بطريقة عشوائيَّة، وزَّعتها علينا، قائلة:

ـ ليس بالأكل الذي يؤكل، لا «ميرا»[1]، ولا «خبز طنور»[2]، إنَّما لا يمكننا إلَّا أن نأكله، أو يأكلنا الجوع.

من بعد أن أنهيت ما يشبه الطعام، سرى ببدني شعور الخمول، والرغبة بالنوم.

توسَّد رأسي إسفنج الفراش، غير المُكتمل الغطاء، تقوقعتُ كالبزَّاق تحت البطَّانيَّة، أشحذُ منها دفئًا، رغمَ رائحتها المقرفة، التي عرّفتني على روائح المساجين من قبلي.

تخدَّر تفكيري، وأنا أذهب إلى النوم بكلِّ حواسِّي، تراءت

(١) الميرا: أكلة إيزيديَّة شعبيَّة تقليديَّة، تتكوَّن من الحنطة المقشورة مع اللبن المغلي.

(٢) خبز الطنُّور: خبز التنُّور هو أحد أنواع الخبز الذي يُصنع في تنُّور الطين وبنار الحطب.

لي وجوه أهلي، وجرفني الشوق لصوت سيروان.

لا يمكنني مهاتفته، فيلاقيني بعبارته المستفزّة: «أحبِّكِ يا أرنبتي!»

من دون أن ينطقها الآن، وكما كنت أقول له دائمًا:

«إنَّني أسمعها تتدفَّق بأنفاسي كشلَّال لا يهدأ!»

أهمس له أنا أيضًا: «أحبُّك». كعبق وردة وسط مزبلة.

لا أدري كيف مضت شهور لا يكلِّم أحدنا الآخر، غضبتُ منه لأنَّه خيَّرني بين الهروب معه أو الانفصال، أراد الضغط عليّ. وأنا، إن فتحت الباب للهروب معه، ستدخل ريح العار، وربَّما الموت، لتعصفَ بأهلي.

كان ذلك اليوم باردًا جدًّا، يومٌ من تشرين، حين لاقيته في البيت المهجور. أخبرتُه بفرحٍ يتطاير من صوتي، كعصافير ملوَّنة، أنَّ مدير المدرسة أتى إلى أبي، وطلب منه أن أُعطي دروسًا بالرسم للأطفال، للمشاركة بمعرض سيُقام في دهوك.

ترك يدي، تطلّع إليَّ، ثم جُنَّ صارخًا:

ـ ما زلتِ تريدين البقاء هنا، تتكمَّشين بأيِّ شيء، دروس رسم، أهلك، القرية، الدين..

رددتُ بصوتٍ قد قُتلَت به كلُّ العصافير:

ـ ليس بسبب دروس الرسم، لا أريد الهروب، إنَّما لأجل أهلي.

ـ إمَّا أن نهرب خلال عدَّة أيَّام، أو ننفصل.

لم يكلّمني أبدًا إلّا بعد أيّام، أرسل رسالة هاتفيّة:

«سأنتظرك غدًا صباحًا، عند آخر مفرق للقرية، إن أتيتِ، سنرحل، وإن لم تأتِ، فهذه آخر رسالة تخطُّها أصابعي إليك».

بقيتُ أتقلَّب بفراشي الليل بأكمله، وما تجرَّأتُ في الصباح الذهابَ إليه.

أتقلَّبُ الآن، هنا، على هذا الفراش، تعقرُ جنابَ عقلي جملةٌ واحدةٌ:

يا ليتني هربتُ معك!

عاد الضوء، ينسالُ من الطاقة، مُنسكبًا فوق جفوني. استفقتُ، لأجد أنَّي غفوتُ للصباح، من دون حتى أن أقلبَ إلى الجهة الأخرى، كأنَّني لم أنم منذ سنين.

الفتياتُ بعضهنَّ ما زلن نيامًا، وتاليا مستلقية على ظهرها، تنظر إلى السقف كمن يحصي نجومًا.

ندهت لها بصوت خفيف:

ـ أنتِ بخير؟

استدارت إليّ:

ـ لم أنم، أفكّر بشيرين، كيف مضى عليها هذا الليل مع الوحوش.

قلت كطبيب يحقن الأمل بمريض على فراش الموت:

ـ ربَّما يُعيدونها اليوم.

هبطت جملتي على وجهها كالقطن الناعم.

عادت اليد المجهولة، لتمدَّ لنا أطباقًا معتّقة بالحقد، يحتوي كلّ طبق على قطعة خبزٍ يابس، وبضع حبَّاتٍ من الزيتون.

لم أقوَ على وضع أيِّ شيء بفمي، تركتُ حصَّتي للأخريات، انقلبت معدتي على نفسها، شعرتُ بحاجة للتقيُّؤ، دخلتُ الحمَّام على عجلة، أفرغتُ كلّ عصارة هضمي فوق جرن المغسلة، أخذتُ نَفَسًا، تغلغلت بصدري كلّ الروائح المتداخلة بالمكان.. تقيَّأتُ من جديد.

تلحَّفتُ بعدَّة بطَّانيَّات، بقي الصقيعُ ينخزني، إنَّه الصداعُ النصفيّ الذي أُعاني منه!

تنمَّلت يدي اليسرى، ونصفُ وجهي الأيسر، أردِّد كلمة واحدة: أمِّي.

مسَّدت تاليا كفّي، محاولةً تهدأة عفريت الصداع الذي يشلّ قدرتي نهائيًّا، ويفصلني عن العالم من حولي.

غفوتُ من دون أن أدري أنَّني غافية، فدماغي بحالتي هذه لا يكنَّ، كنحلةٍ تتخبَّطُ بقاع قنِّينة زجاجيَّة، دون اكتشاف فتحة الخروج!

أحلمُ أنّني محاصرةٌ بالظلام، في غرفةٍ مُغلقةٍ تمامًا، تضيقُ مع الوقت، أحاولُ فتحَ كوَّة بالحائط، وعندما يتشوَّه الظلام بقليل من نور، تتسكَّر الكوَّة مُجدَّدًا، فيضيقُ المكان بي أكثر، إلى أن تُلامسني الجدران من كلّ الاتِّجاهات، وتبدأ العتمة بخنقي!

الحلم نفسه يولِّده رأسي بمخاض الصداع!

أيقظتني ليلاف وهي تمسح على وجهي بكمِّ كنزتها:

ـ إنَّكِ تتصبَّبين عرقًا.

ـ إنَّنا في قبر.

سمعنا خربشة المفاتيح بغلّ الباب، كفأرةٍ في كيس نايلون، أرعبتنا.

اقتربتُ إلى ليلاف، لزقتُ نفسي بها، دعستُ على جيش النمل المتأهِّب برجلي، طويتها تحتي.

دخل ملثَّمون مع أبو جنيد، وضعوا طاولة وكرسيًّا بالقرب من الباب.

تأكَّد الشخص الأوَّل أنَّ الباب أُغلق. كشف الثلاثة عن وجوههم، وإذا هم بنساء!

جلَست رئيسةُ كتيبة النساء، أمّ الخنساء، على الكرسيِّ، ووضعت أمامها على الطاولة دفترًا، وأضاءت مصباحًا أبيض اللون، قالت كأنَّها تسمح لنا بالكلام:

ـ هيَّا ماذا عندكنَّ؟ تحدَّثن.

تقطَّعت رؤوس اللهب بالقلوب، تشجَّعت الفتيات على الوقوف أمام نساء مثلهنَّ، كنتُ أراقب ما يحدث، دون أن يكون لي القدرة على الوقوف، أو الكلام.

كلّ واحدة منّا أخذت تحكي بلهفة، وترجٍّ، عمَّا حصل لها، دون أن يُفهم شيءٌ من الكلام الذي ركِبَ فوق بعضه بعضًا.

خنَقَت الحلوق، وجمّدت الأحرف بالبلاعيم، حركة أمّ الخنساء، حين فتحَتْ عن سُترتها، ليتبيَّن أنَّها تتزنَّر بحزامٍ ناسف.

أتت لتُفجِّر حقدها هنا، فينا!

أمرتنا بأن نركع، عضضتُ على صداعي ووجعي، ركعتُ بالصفّ الخلفي.

ألقَت ظهرها بارتياح، على الكرسيِّ، وتأمَّلتنا لثوانٍ، ثم قالت:

ـ من تتكلَّم العربيَّة؟

قالت لها ليلاف:

ـ لا يعرفن العربيَّة جيِّدًا، يتحدَّثن الكرمانجيَّة.

ـ ما هذه اللغة؟

ـ إنَّها لهجة متفرِّعة من الكرديَّة.

بنبرة آمرة، من دون أن تترك مجالاً للرفض، قالت لليلاف:

ـ إذًا، أنتِ من سيترجم للأخريات كلّ ما أقوله.

تولَّت الرئيسة توجيه الأسئلة لنا، وسلّمت الدفتر إلى مساعدتها الأولى، التي كتبت كلّ سؤال وكلّ جواب:

ما اسمك؟ ما عمرك؟ هل أنت عذراء؟ هل مارست الجنس من قبل؟ متى كان آخر موعد لدورتك الشهريَّة؟

للفتيات المتزوِّجات أسئلة من نوع خاصّ:

كم مرَّة كنت تمارسين الجنس مع زوجك؟ هل لديكِ مشاكل أو أمراض جنسيَّة؟ ما هي الأفعال التي كنت تقومين بها خلال العلاقة؟

يبتسم أبو جنيد لسماعه هذه الأسئلة.

تختنق ليلاف، وهي تترجم لنا كلّ هذه الأسئلة المُحرجة، تُعيد وتُكرِّر بلغتنا، عند بداية كلّ سؤال:

ـ أرجوكنّ. . أُعذرنني، إنَّما هي تسأل.

من بعد أن انتهت من شحن دفترها، بكلِّ المعلومات المهمَّة للغاية والخطيرة، طلبَت من مساعدتها الأخرى، توزيع ما تحتويه الحقيبة، التي وضعوها بالقرب من الطاولة عندما دخلوا.

بدأت ترمي أمامنا على الأرض: علب شامبو، شفرات حلاقة نسائيَّة، إضافة إلى فوط صحِّيَّة، وآخر ما أخرجته يديها، المغلَّفتين بكفوف سوداء، فساتين ملوَّنة يملأها البرق، شبه عارية!

قال أبو جنيد بمكر، وهو يحكّ لحيته الطويلة، بأظافر كمحراث البغل:

ـ اليوم، سيكون لكلِّ واحدة منكنَّ رقم، إفرحن يا أخوات.

وضع على الطاولة أوراقًا، طُبع عليها أرقام من ١٢٠ إلى ١٤٠.

وبالرجوع إلى أسمائنا بالدفتر، علّقت المساعدتان على صدورنا أرقامنا، «كان رقمي ١٣٢».

نظر إليَّ كأنَّه لمحَ بطرف الغرفة عصفورًا خائفًا، قال:

ـ أنتِ، أنتِ، هذا الجوّ لا يُعجبنا، سأرمي بك إلى «أبو كفاح»، ما رأيك يا أمّ الخنساء؟

ضحكت أمُّ الخنساء، وهي ترمي عليَّ نظرة غيرة متخفِّية:

ـ أبو كفاح يستأهل.

تغيَّرت لهجتها، عندما عاودت توجيه الكلام لنا:

ـ هيَّا استحممن، إلبسن هذه الثياب.

أضاف أبو جنيد مشدِّدًا على حروفه:

ـ سأعود بعد صلاة العصر، بإذن الله.

خرجوا مخلِّفين وراءهم دمارًا، ما زال يتهبَّط بداخلي، كيف يمكنني أن أتجلّس؟

أتحمَّم؟ أن أمشي إليهم وأنا أعلم بأيِّ جحيمٍ سأُرمى!

* * *

كم كنَّا جميعنا بحاجة لأخذ حمَّام ساخن، ليُعيد إلينا السكينة.

ولكنْ، ليس بهذا الوقت ولا بهذا المكان.

تتجمَّعُ المياه على رأسي، كالجليد، كأنَّها تنبع الآن من قاع الأرض، وليس من هذا الخرطوم القصير.

هل كُتبَ بعدُ لي أن أتعمَّد بماء العين البيضاء[1] لو لمرَّة واحدة؟

وأن أتطهَّر ببئر زمزم[2]؟

تنزلق حبَّاتُ الماء متدحرجةً أرضًا، كالهلوسات. نوبةُ

(١) العين البيضاء: بركة ماء توجد بداخل معبد لالش، وعلى كلّ إيزيدي أن يتعمَّد بها.

(٢) بئر زمزم: نبع ماء بالقرب من مرقد الشيخ آدي، ولا بدَّ لكلِّ إيزيدي عند زيارة المعبد أن يدخل إلى هذا النبع من خلال النفق الذي يؤدِّي إليه، ليغتسل بمائه.

الصداع تعاودني، أشعرُ بالبلاط يتحرَّكُ تحت قدميّ كالزبد، لملمتُ قدرتي المبلولة المرتجفة، وخرجتُ أطلبُ دفئًا.

الآلامُ لا تُطاق، المياهُ الباردةُ دمّرت جمجمتي.

استحممنا كمن تَغسلُ كلُّ واحدةٍ جثَّتها «غُسل الموتى»، تهيَّأنا لِلبسِ أكفانٍ مُبرَّقة، قبل أن نُدفن أحياء.

من أقسى ما يمكن أن يحدثَ لإنسان، هو لحظات انتظاره لذُلٍّ ينتظره!

من تحت بطَّانيَّتي، أُراقبُ الفتيات: كلّ واحدةٍ أخفت نفسها ببطَّانيَّتها للسترة.

قالت تاليا كأنَّها تقرأ أفكاري:

ـ لم أكن أبدِّل ثيابي حتى أمام أمِّي.

ردَّت ليلاف:

ـ لشدَّة خجلي من الفريق الطبِّي الذي حاوطني، كنت سألد إبني وحدي.

شهَقت فتاةٌ بالبكاء، حاشرةً رأسها بالغطاء، ما عادت استطاعت التنفُّس، غمرتها صديقتها القريبة منها. لم تقترب منها أيَّة واحدة، لعدم استحضار الجرأة بعدُ للمشي بهذه الفساتين، ولأنَّنا أيضًا كنَّا نختنق مثلها.

رغم ضعفِ عينيَّ بحالاتِ الصداع، إلّا أنّني كنتُ لا أنفكُّ أُبحلقُ في الباب، وأجنِّدُ سمعي لالتقاط كلّ حركة خارجيَّة، مصدرها خطوات، مفاتيح، أو كلام.

علّني أراوغُ القدر القذِرَ، الذي أُنقعُ فيه، هربتُ بذاكرتي إلى ذلك المساء الماطر، كنتُ أرتدي فستانًا أخضر، وشالاً من الصوف الناعم البنِّيّ، حاكته لي خالتي كوري.

قربَ نافذة غرفتي المطلَّة على الباب الخارجيّ لبيتنا، أنتظرُ سيروان.

أصرَّ أن يراني في هذا الوقت المتأخِّر من الليل. البيتُ مُعتم، الحيّ مُعتم، القرية مُعتمة، الكون مُعتم، إلَّا عيناي تُشعَّان!

مضى الوقت حينها طويلاً أيضًا، إلَّا أنَّني كنتُ أقفز بعقارب ساعتي للأمام، ثم أُعيدها إلى ما كانت عليه.

ها هو سيروان يركضُ تحت المطر، نحو بيتنا.

عند قنّ الدجاج، مسحتُ شعره المبلَّل، مررتُ يدي على وجهه، على عينيه الجميلتين.. ما أروعه، حين أغمضهما، تاركًا أصابعي ترسمُ ما تشاء، وما تحلم فوقهما!

لنحتمي من المطر، اقتحمنا غفوة الدجاج بأحلامنا المجنونة، وأُغلقَ باب القنّ.

انفتحَ البابُ القزم، دخل أبو جنيد، وأنا ما زلت هناك داخل القنّ، تُرافقه المساعدة الأولى، وعنصران بقيا خارج الزنزانة.

نظر إلينا مندهشًا، وقال:

ـ لماذا كلّ هذا التلفلف؟

بحركاتٍ سريعة، كلبوة فُتح قفصها للتوّ، انطلقت المساعدة نحونا، كاشفةً البطَّانيَّات عن لحم طازج.

عصفت غريزة أبو جنيد بعينيه، كريحٍ تصفعُ أجسادنا، التي بدت كحمامة منتوفة الريش.

مشيتُ محاولةً تغطية أجزائي بيدي، كم تمنَّيتُ لو أنّني أخطبوط!

أخذنا السردابَ المُعتم نفسه، صعدنا الأدراج نفسها، وبدأت أرى النور بوضوح.

صعدنا إلى الطابق الثاني، أدخلونا إلى قاعة بدت للاجتماعات، لها شبابيك واسعة، بآخرها طاولة كبيرة وُضع عليها أباريق ممتلئة بالمياه.

لو أنَّ ذراعي تصل إلى إحداها، لأدفق ماءها كلَّه في جوفي، المتشقِّق كجذع شجرة تين اقتُلِعَت من أرضِ سنجار.

لدقائق، بقينا وحدنا، من دون جنود، وكانت أفواج الفتيات تدخل بالتدرُّج، حتى امتلأت القاعة بحوالى مئة وخمسين فتاة.

انتشروا بيننا، أوقفونا بالترتيب الذي يناسبهم، تحت إشراف أمّ الخنساء، التي دخلت تتفقَّد الثياب كيف بدَت علينا، تشمُّ كلّ واحدة عن قرب، لتتأكَّد من نظافتها، إحدى أساسيَّات العرض والشراء.

لو أنَّهم يشمُّون رائحتهم! حتى أمُّ الخنساء، لها رائحة من مزيج العرق والكره!

أصابتني دوخة، ما عدت قادرة على حمل وزني مدَّة أطول، انتبهَت إليَّ أمُّ الخنساء، أو أحد العناصر لفت نظرها إليَّ، لا أدري، إلَّا أنَّني رأيتها أمامي، كمن استُدعي ليحلّ أمرًا هامًّا:

ـ ما بكِ؟ هل أضعُكِ بالمنفردة؟

بنبرةٍ عنصريَّة، أردفت:

ـ هل تفهمين ما أقوله؟ أم تريدين ترجمة؟

رددتُ بصوتٍ منخفض:

ـ أنا مريضة و..

قاطعتني، شدَّتني من مرفقي صارخة:

ـ إخرسي.

كانت تريد توصيل رسالة، إلى كلّ الفتيات، أنَّ ادِّعاء المرض ليس بالحيلة الذكيَّة، للتهرُّب من أوامرهم وممّا ينتظرنا!

بعد وقت صغير، بدأ المقاتلون بالدخول، منهم ممَّن أسروني وعائلتي.

وجوههم التي بدت لي مألوفة، أعادت تمثيل الجريمة أمامي، كيف استطاعوا نحرَ حياتي هكذا؟

اصطفُّوا لاهثين جوعًا لامراة، عيونهم تستطلع كلّ واحدة فينا، يضحكون ويتهامسون بانتظار الهديَّة.

دخل مدير السجن، تقدَّمَت نحوه أمُّ الخنساء، كأنَّها تُبلغه بأنَّ كلّ شيء أصبح جاهزًا. ذهب، وعاد بمجموعة رجال، بدوا مقرَّبين منه.

قال مفتتحًا حديثه، كأنَّه باحتفال:

ـ اليوم سوق ما ملكت أيْمانكم، يوم السبايا.

«أنا يوفا ابنة الشمس، أُباع بسوق الجواري».

علّني أُنقذُ جسدي من نظراتهم، تطلَّعتُ خارجًا، فتهيَّأ لي أنَّ كلّ الساكنين في تلك البيوت البعيدة، يحدِّقون بي بعيون جاحظة، تكادُ تكسر الزجاج لحدَّتها.

عاريةً أمام كلّ الناس، وأمام الله، سيشتريني أحدهم بعد قليل.

يكمل المدير كلامه باعتزاز، مُمرِّرًا إصبعه على شامته الكبيرة، تحت عينه:

ـ الله شرَّع لكم أيُّها المجاهدون الاستمتاع بهنّ.

نقل بصره إلى الطاولة، موجِّهًا كلامه للقادة والأمراء:

ـ أيُّها الرجال، الآن يمكنكم أن تختاروا ما يطيب لكم.

ردَّ أحد المقرَّبين، بلهجته الخليجيَّة:

ـ ترى ما آخد غير الزينة.

كالحيوانات المفترسة الجائعة، التي تشتمّ طريق اللحم والدم، انفلتوا بيننا، وكنَّا نحن جيفًا واقفة!

وهم يمدُّون، كألسنة الضفادع، لمساتهم عليّ، ما استطعت أن أنظر إليهم. طأطأت رأسي للأسفل، وتخيّلت جمرًا يخرجُ منِّي كالهالة، يحاول كيّ من يطالني.

توقَّف قربي أحدهم، استقرَّت قدماه مقابل قدميَّ تمامًا، لم أجرؤ على رفع وجهي للنظر إليه، أخذ قلبي يهوي إلى أمعائي. تقدَّم نصف خطوة، وداس بطرف نعله على أولى أصابعي، أراد أن يوجعني.

مدّ يده إلى ذقني، نتع وجهي إلى الأعلى، جمّد عينيه بعينيَّ. رأيت وجهي بحدقتيه متضخِّمًا. هل استقرَّ وجهي على هذه القباحة للأبد؟

أخذَ يجُولُ بيده على جسدي، حافرًا أثلامًا من خزْيٍ وقهر. لو أتحوَّل لعصفور، أطير من هذا الشبَّاك بعيدًا، ولو أنَّهم سيرمّونني بطلقة واحدة، ويحملني إليه أحد كلابه.

انحنى نحوي، ولفظ أنفاسه الساخنة بأذني:

ـ أريدكِ.

ندهَ للمدير، بصوتِ كمن وجدَ الكنز أخيرًا:

ـ أنا اخترت الرقم ١٣٢.

ردَّ عليه الآخر:

ـ مبروكة عليك.. عيون خضراء وشعر أسود.

جرّني من يدي، إلى أن وصلنا قرب الطاولة.

مددتُ يدي إلى حافَّتها، لأسند نفسي. من شدَّة توتُّري، وقوَّة صداعي، أخذت أتقيَّأ..

تقدَّمت أم الخنساء إليّ، شدَّتني من ذراعي، محاولة تنبيهي، وأمرتني بأن أقف، إلَّا أنَّني لم أقوَ على ذلك.

قال لها:

ـ أهي مسلولة؟ لم أعد أريدها.

لكشتني برجلها:

ـ ابقي هنا يا قحبة. حين أنهي عملي، سأعود،

بقيتُ قرب الطاولة، وقرب تقيُّؤي، لم أصدِّق أنَّه لم يعد يريدني.

هل نجوت؟

* * *

بعد اختيار الأمراء والقادة للجميلات، اعترض العناصر على ما تبقَّى من متوسِّطات الجمال وغير الجميلات، على حدِّ وصفهم، وكانوا سيقتلون بعضهم بعضًا، لو أنَّ تدخُّل المدير جاء سريعًا، واقترح حلًّا أرضاهم.

وكان بأن كتبوا أرقام الفتيات اللواتي بقين على قصاصات من الورق، وكلٌّ عنصر يسحب نصيبه بيده.

من بعد أن انتهى التوزيع، سمحَت أمّ الخنساء إلى خمس فتيات، يلبسن بدلات طبِّيَّة، بالدخول إلى القاعة. استقدموهنَّ من مستشفى الموصل، تحت وطأة التهديد، وبدأن يفتحن صناديقهنَّ مستخرجات منها إبرًا، انزرعت بذراع كلّ فتاة.

لم أدرِ بماذا حُقنت الفتيات، إلَّا أنَّ وجعَ الشكَّات، لم يكن أبدًا أقوى من نخزات أصابع الوحوش للحمهنّ، وهنّ عاريات يقفن بسوق بيع الجواري.

أشارت الرئيسة لإحدى الممرِّضات، فتقدَّمت نحوي، كملاك مُجبر على افتعال جريمة.

شكّت الإبرة بهدوء حتى لا أتوجَّع، فهمست لها:

ـ ما هذا الدواء؟

ـ ليس بدواء، إنَّه مانع حمل لثلاثة أشهر.

ما هي إلَّا دقائق، حتى اتَّشحَ المكان بالسواد. أُلقي على الفتيات عباءات طويلة سوداء، ورحلن إلى أقدارهنّ اللعينة.

ما زلت غير قادرة على التصديق. أنقذني صداعي من موتي!

للمرَّة الأولى، أشكر الله على ابتلائي بهذا المرض.

أعادوني إلى الزنزانة وحدي، النور شبه غائب، لم يقوَ بصري على رؤية ثيابي من بين كومة الثياب.

سمعت نَفَسًا يتصاعد بصعوبة، خفت، فقلت بالعربيَّة:

ـ مَنْ هنا؟

ـ لا تخافي.

خرج صوتها ثقيلاً، وكلماتها العربيَّة أثقل. اقتربتُ منها، تلمَّستها ترتجف من البرد، أو الخوف، لم أُخمِّن!

قلت لها:

ـ ما بكِ؟

تدحرجَت كلماتٌ متباطئةٌ من بين شفتيها:

ـ أنا التي أخذها المدير.

شهقتُ:

ـ شيرين!

أجلستها، ومسحت وجهها، وطرَّيت ريقها ببعض قطرات ممَّا تبقَّى من الماء هنا. شعرتُ بها مريضة، حرارتها تغلي.

دخلت أمُّ الخنساء، أضاءت مساعدتها الفانوس بوجهي، رمت إليّ بحبّتيْ دواء، وقالت لي:

ـ لا تفرحي كثيرًا، الشاري قادم، خذي هذا الدواء الآن.

لم أمدّ يدي إلى الدواء، صرخت:

ـ هيَّا ابتلعي الحبَّتين أمامي.

نزل الدواء كالسمِّ، لا أريد أن أشفى.

قلت لها بترجٍّ:

ـ شيرين مريضة كثيرًا، هلَّا تعطيها دواء!

ردَّت بنبرةٍ حاقدة:

ـ من تتمنَّع، لا يُرأف بها.

ساد السكون الثقيل على جوِّ الزنزانة، لا يخترقه إلَّا التنقيط غير الآبه بما يجري، وأنين شيرين التي غفت، أو غابت.

أبحث بين الثياب، فلامست قميص تاليا، عرفته من أزراره

النافرة. بلَّلته، وبدأت أنقله بين رقبتها وتحت إبطيها، لساعة أو أكثر.

غرقتُ بالظلمة التي تحاوطني، وأحاوطها. لا شيء معي إلَّا ذاكرة، أُضيء قنديلها، فتشعُّ وجوه من أحبّ، ثم لا تلبث أن تنطفئ وتتلاشى في العتمة.

سيروان لا ينطفئ، كالشهب، إذا غابَ عاد فجأةً، يخطف حواسِّي وراءه، لم يملّ وهو يلحّ عليّ أن نهرب، أن نبدأ من جديد، في مكان بعيد عن قريتنا، التي يبغضها. كان دائمًا يردِّد:

ـ كم أتمنَّى أن أبتعد عن هذه القرية إلى الأبد، أنظري إلى كلّ تلك التلال الرائعة، لم أعد أراها جميلة، أشعر بها كأحجار تُبنى وتتكاثر، لتتحوَّل إلى سجن، وكلٌّ منَّا بزنزانة منفردة. لن يسمحوا لنا بالعيش بسلام، حرَّموا حبَّنا من قبل أن نولد نحن، بل قبل أن يولد آباؤنا.

ها هو اليوم، يدافع عن تلك التلال، بكلِّ ما لديه من إيمان وحبّ وقدرة ودم..

السجن المرعب الذي كنتَ تخاف علينا منه، في قريتنا، أنا خارج جدرانه الآن، مع وحوش لم تَرَ الشمس بحياتها.

لو أنَّني هربت معك!

استفاقت شيرين، تحسَّستُ من صوتها تحسُّنًا قليلاً، وهي تقول لي:

ـ كم أرغب بأنَّ ما لاقيته، لا تلاقيه أنتِ وباقي الفتيات!

لم أكن أجدُ الكلمات لأقولها، هل أواسيها أو أسألها؟

تابعَتْ:

ـ تناوبوا عليَّ ثلاثة مع مدير السجن، إلى أن أُغمي عليَّ، ولكنَّني صمَّمت على الانتقام، وطعنت أحدهم.

سألتها:

ـ كيف فعلتِ هذا؟

ـ خبَّأتُ المقصّ، الموجود على مكتبه، تحت الفراش، ثم عندما أتوا في اليوم الثاني، ألقى أوَّلهم جثَّته عليّ، فغرزته بمؤخّرته.

تكمل كلامها كالمنتصر:

ـ لو رأيته كيف خجل من طعني لرجولته.

ـ ماذا فعلوا بك من بعدها؟

ـ لقد ضربني كثيرًا، إلَّا أنَّ سعادتي منعتني من تحسُّس الألم.

لم تكن شيرين بحالة طبيعيَّة أبدًا. بقيتُ أحدِّثها وأختلق المواضيع، لأردعها من التذكُّر، علّها ترتاح قليلاً.

إلَّا أنَّ لسانها كحصان برِّي، يُحمحم، راكضًا، دون قدرتها على ترويضه، وهو يكرِّر أدقّ التفاصيل، المؤلمة والصادمة.

تجترّ ذكرياتها القديمة، إلى ما قبل ولادتها. تُخبرني بأنَّ أباها عندما حملت بها أمّها، منذ أكثر من سبعة عشر عامًا، نذر أنَّه سيذبح الأضاحي، ليوزِّعها على الفقراء، ويشعل الفتائل لعشرة أيَّام متوالية بكلِّ أنحاء معبد لالش، إن رزقه الله بفتاة، من بعد أن كان لديه خمسة صبيان.

تسألني بلوعة:

ـ لو علم أبي ما الذي سيحلّ بأمنيته المقدَّسة، لما كان طلب تحقيقها، وكنت بقيت مجرَّد رغبة دفينة في أعماق أبوَّته.

ثم بنبرة أكثر حدِّيَّة، أضافت:

ـ ولو أنَّ الله أيضًا لم يستجب لنذره، لما كنت هنا الآن.

نامت أخيرًا، وبعض الكلمات غير المفهومة تفلت من فمها. كانت تهذي بكلِّ ما حدث معها.

طافت وسادتي بالدموع، وساد السكون مجدَّدًا بالزنزانة، وبجسدي تحت مفعول الدواء، فغفيت، وأنا أيضًا أهذي بكلِّ ما سيحدث معي.

* * *

كأنَّها دقائق مرَّت لا أكثر، استفقتُ على حركة فوق رأسي: أبو جنيد وخلفه رجل بقامته الطويلة يسدّ بعض الضوء المتسلِّل. بقيتُ أتطلَّع إليه، كأنِّي ما زلت أغوص بشلل النوم.

لكشني برجله على رأسي، لأتجلَّس.

وقفتُ مُترنِّحة، أحاول تثبيتَ وزني. اقتربَ الرجلُ خطوة كبيرة، مدَّ يده إلى يدي، فابتعدتُ، خابطةً بالحائط ورائي.

هجمَ أبو جنيد، وشدَّني من شعري، لفّ أصابعه حول رقبتي، كدجاجة تتهيَّأ للذبح، فاسحًا المجال للشاري بمعاينتي، وتمرير عينيه، ويديه، كيفما أراد.

أومأ إلى أبو جنيد بالرضا قائلاً له:

ـ سأشتريها، ولكنْ إذا وقعت تحت يديك أخريات، أبلغني.

ردّ أبو جنيد كبائع قماش مُحنَّك:

ـ لدينا الكثيرات، وكلُّهنَّ على مقاس ذوقك.

ضحكا فوق قبرٍ لم يتسكَّر بعد!

* * *

دوّر رأسه باحثًا في الزنزانة، قائلاً:

ـ أين الملعونة؟ أحضريها من الحمَّام.

تخطَّيتُ العتبة، فوجدتُ شرين ممدَّدة أرضًا، عيناها مفتوحتان نصف فتحة، وشفتاها بنفسجيَّتان.

أتأمَّلها، والصدمة تعتلي وجهي، لم أَرَ ميِّتًا في حياتي، إلَّا أنَّني شممت رائحة الموت تنبعث من المكان، وتغطِّي على كلّ الروائح النتنة المنتشرة حولي.

ناداني مستعجلاً، لم أقوَ على التحرُّك.

دخل منفعلاً، جمَد مثلي، لثانية، ثم نادى الحارس، وأمره بأن يتفحَّصها.

حاول تحسُّسَ نبضها، ثم أعلن:

ـ لا يوجد نَفَس.

قال أبو جنيد ممازحًا:

ـ راحت عليه القطَّة لأبو كفاح.

كالخبير الجنائيّ، يحلِّل:

ـ العاهرة قطعَت شرايينها.

ثم صرخَ بالحارس:

ـ أين هي أمُّ الخنساء؟ كيف لم تراقب استعمال الشفرات، أو تلمّها فور الانتهاء؟

ثم خفَّض صوته، وقال للحارس:

ـ أحضِر بطَّانيَّة من هناك، ولُفَّها بها، وارمها وراء السجن من جهة الغرب، لتشبع منها الكلاب والأفاعي، أو طمّها بالتراب، إن كان لديك همَّة.

وقف ومسح كفَّيه ببنطاله، محاولاً تخليص نفسه من دم شيرين.

دمها على راحتيَّ يسري باردًا، كلّ شيء هادئ الآن في شرين.

خبطُّها على وجهها يمينًا، يسارًا، علّني أُحرِّض الموت فيها على الموت، فتعود!

جسدها الأبيض، تملأه الكدمات الحمراء والزرقاء، آثار أسنان واضحة منغرزة بجلدها.

كيف تحمّلت كلّ هذا الوجع؟

رغم آلامها البارحة، إلّا أنَّني، الآن، تيقَّنت بأنَّها لم تتألَّمها كلَّها.

شيرين قتلت نفسها، لتقتلَ كلّ حيْونتهم الحيَّة، الناغلة بداخلها!

*****

جرَّني أبو جنيد، وأدخلني غرفة مدير السجن.

لفحني صُراخ شيرين، الذي ما زال يقفزُ في الزوايا!

أخذتُ أتفحَّص عينيه، أردِّد بصمت: «كم أنت قبيح!»

زمَّ شفتيه، وغمز الشاري قائلاً:

ـ هؤلاء الفتيات على كيفك، لقد جرَّبتهنَّ بنفسي.

وهو يبتسم بمكر، قال الشاري:

ـ عساها تكون مطيعة.

ردَّ المدير ممازحًا:

ـ البضاعة التي تُباع، يمكن أن تُبدَّل وتُردّ.

شاركهم أبو جنيد الضحك، ويده تهزّ على زندي.

وضع الرجل مبلغًا من المال على الطاولة، مدّ المدير يده لاحسًا بريقه على إبهامه، يحسب ثمني، شاكرًا إلٰهه على هذه البيعة الموفَّقة!

قال:

ـ مبروك عليك يا أبو محمَّد الرقَّاوي.

ـ ٤ ـ

أنحشرُ بكاميون لنقل النفط، بين السائق وبين المالك أبو محمَّد الرقَّاوي، الذي زركني بالوسط، متيحًا لطرفه الأيسر كلِّه أن يلتصق بطرفي الأيمن كلّه. لو أجلسني بالقرب من الباب، لرميت نفسي دون تردُّد.

إلى أين نذهب؟ لا أدري!

هل هو القدر؟ هل هي مشيئة الله؟

إن كان قدرًا لعينًا، ليته يكون رؤوفًا بي!

وإن كانت مشيئتُه، فيا ليت القدرَ اللعين يُنقذني من لعنتها!

أسمعُ، رغمًا عنِّي، أنفاسَ أبو محمَّد الرقَّاوي الملتصق بي، وأتعجَّب! هل يكون ربِّي هو نفسه ربّه؟

خبيثٌ، يختلقُ أحاديث مع السائق، ليكسب التفاتةً نحوي. أحاول أن أبتعد عنه، إلَّا أنَّ ضيق المسافة، وهذا الـ ڤيتاس،

يحولان بيني وبين بضع ميلِّمترات، يمكنها أن تهبني فسحة نَفَس.

تنقذني مُخيِّلتي كلَّما احتجتها.

كانت أوَّل مرَّة ألتقي سيروان بالبيت المهجور. حينها، تجرَّأ وغمرني أوَّل غمرة، ولأوَّل مرَّة التصقت به.

شدّني إليه، هامسًا: «لو تلتحمين بي هكذا للأبد».

* * *

تتسكَّرُ الرؤية أمامي، بجثَّة البغل الذي يرقد إلى جانبي، يشعلُ الراديو، يأخذُ كاملَ وقته بحثًا عن الأخبار، تاركًا ذراعه تستوطن على فخذي، وكوعه ينخر بطني.

أبعدتُه عنِّي بطريقة عفويَّة لاإراديَّة.

ابتسم السائق بسخرية، قائلاً:

ـ سوف تتعبك هذه يا أبا محمَّد.

صفعني على وجهي ليجمع صورته المتهشِّمة.

سالت الدموع من مقلتيَّ، وكأنَّها كانت تقف عند الباب تنتظر أيّ شيء لتنفجر.

قال السائق بتشفٍّ، كأنَّ له ثأرًا معي:

ـ أحسنت يا صديقي، يلزمها إعادة تربية.

ردَّ عليه غارزًا عينيه، كمسمارٍ على وجهي:

ـ سأجعلها تندم هذه الكافرة، لا تعلم ماذا سأفعل بها!

كالسلحفاة وسطَ أقدام بشرٍ يتقاذفونها كالطابة، أحمي رأسي بكفيَّ، حبستُ صرخاتي، فشلَّعتني، ونزفت حقدًا أعمى!

مرَّ وقتٌ طويل، والمسافة بدت لي بعيدة، بعيدة أكثر ممَّا

تصوَّرت، مناطق تطأها عيناي لأوَّل مرَّة في حياتي.

أحاول قراءة اللافتات، علّني أتنبَّأ بوجهتي المظلمة.

رأيت حاجزًا على بعد أمتار، صمَّمت أن أصرخ طالبة النجدة.

ما إن توقَّف الكاميون، حتى اختنقتُ بمشهد اللحى، المرتمية فوق صدور الواقفين على الحاجز، وأعلامهم السوداء ترتفع مرفرفة بكلِّ فخر بالهواء.

مدّ السائق يده مصافحًا أصدقاءَه، اقترب منه أحد العناصر قائلاً:

ـ رائحة النفط ورائحة النساء تجلبُ السعادة لقلب الإنسان.

ردَّ عليه السائق مُصطنعًا الحسرة:

ـ إنَّك على حقّ، إنَّما لي جزء من النفط، أمَّا السعادة فكلُّها للقائد أبو محمّد.

ضحك أبو محمَّد قائلاً:

ـ السعادة لا تُعار، إنَّما سأُعيرك إيَّاها حين أنتهي منها.

اقترب عنصرٌ آخر، حاشرًا رأسه بالنافذة مردفًا:

ـ النفط يحمل إليك آلاف النساء!

يأخذون النفط، يخطفون النساء، يسرقون خيرات الأرض.

كلَّها تحت مسمًّى واحد، شرع الله بالتعامل مع الكفَّار.

هذا الطريق كلُّه تحت سيطرتهم، وأعلامهم تصبغ سماء الله بالسواد.

«أهلاً بكم في الدولة الإسلاميَّة ـ الرقَّة».

إنَّها ترحِّب بي، نعم، كالخروف الذي يُرحَّب به بالمسلخ، ليلة عيد الأضحى!

دخلت الآن إلى منطقة بعالم آخر، لا تدخلها إلَّا كائنات ملتحية، وكائنات تتنقَّب بالسواد المقدَّس.

دخلت إلى منظومة تعود بالزمن إلى الوراء.

أُساقُ إلى البلاط، السلاسلُ تلتفُّ حولَ روحي، وجسدي يُقدَّمُ قربانًا محترقًا لإلٰه شهواتهم.

أستكشفُ هذه المدينة، ونحن نسير بشارعٍ عريض، تحيطه البنايات، والمحالّ التجاريَّة، وبائعو الخضار.

كمسَّاحات الماء، آخذ نظري يمينًا ويسارًا، لأرى حياةً كأنَّها عاديَّة، إلَّا أنَّها ليست كذلك. الرعبُ يقفزُ بين المارَّة، كما اللحى التي تتمشَّى بوضح النهار، والأعلام السوداء تأخذ شهيقًا، وتكبُّ زفيرًا سامًّا بالهواء.

أقفاصٌ كبيرةٌ ذات قضبان حديديَّة عالية، موضوعةٌ على حافَّة الأرصفة، والتي تُستعمل في حدائق الحيوانات، لاحتجاز حيوان مفترس حجمه كبير، كالأسد أو النمر أو الدبّ..

ما هي الوحوش المنتشرة في هذه المدينة؟

إذ لا يكاد يخلو شارع من الأقفاص، وهذا رجل بداخل أحدها، متروكٌ تحت الشمس، لا أدري ما هي تهمته، ربَّما لأنْ ليس لديه لحية!

توقَّف الكاميون، أمام بناية بثلاثة طوابق، تتكاثر العناصر أمام مدخلها.

وما إن ترجَّل أبو محمَّد، حتى أحاطه عدد كبير من العناصر، متباركين بعودته. يبدو أنَّه قائدهم!

مسك بشعري أمام عناصره، وشحطني وراءه.

صعدنا إلى الطابق الثاني، فتح الباب، ودفعني إلى داخل البيت.

نادى بأعلى صوته:

ـ سلمى، أم محمَّد أين أنت؟ تعالي.

انفتح باب غرفةٍ في آخر الممرّ، خرجت منه امرأة ممتلئة تبدو أنَّها في الثلاثين من عمرها، شعرها ينهدل على كتفيها، حادَّة العينين، ومشيتها بطيئة.

وكأنَّها لم تستغرب وجودي، قالت له:

ـ الحمد لله على سلامتك يا قائد.

أشار إليَّ بإصبعه قائلاً لها:

ـ أحضرت لك خادمة.

وتطلَّع فيّ مكمِّلاً:

ـ هذه ستّ البيت، وأنت سوف تنفِّذين أوامرها، وتخدمينها، فهمتِ؟

ضربني بكوعه على رأسي، أومأت له بالموافقة.

ساد بداخلي شعور طفيف بالراحة، أنَّ زوجته هنا، ويبدو أنَّني سأكون خادمة لها، وليس جارية له!

راحت تتأمَّلني باستعلاء، اقتربَت منِّي، تشمُّ رائحتي.. ابتعدَت صارخة:

ـ يا لكِ من قذرة، رائحتكِ مُقرفة لأنَّك كافرة.

وقالت له بصرامة:

ـ يجب أن تدخل الإسلام، وإلَّا فإنَّها لن تطهَر.

قال لها:

ـ أدخليها الحمَّام الآن، وأعطها ثيابًا نظيفة، وسأعلِّمها الصلاة بنفسي.

أقفلتُ باب الحمَّام بإحكام، وأخذتُ أتنفَّسُ بعمق، أسترجعُ كلّ ما حدث معي، من ذلك اليوم الأسود، إلى أن وصلت هذه المدينة السوداء، عبدة.

دقَّت على الباب بقوَّة، وصرخت:

ـ افتحي الباب يا وقحة، تعتقدين أنَّكِ باستجمام.

فتحته، أخفيت رجفتي، وقلت لها بصوت مُستقرّ، بدا بريئًا:

ـ أريد أن أخلع ثيابي لأستحمّ.

دفشت الباب على آخره، وأمرتني أن أُبقيه مفتوحًا هكذا، وأنَّها سوف تتفقَّدني كلّ دقيقة.

لم أعرف كيف تحرَّكت يداي ورجلاي تحت الماء، وأنهيت حمَّامي. حواسِّي كلُّها متأهِّبة، تقف على الباب كستار.

لم تأتِ ولا مرَّة واحدة، أرادت فرض سلطتها.

لبستُ ثوبًا، أعطتني إيَّاه فضفاضًا، على مقاسها.

وخرجتُ كاللصِّ من الحمَّام. لم يكن هناك أحد، جلست

على كرسيّ، وُضعَ في الصالون، حتى لم أجرؤ الجلوس على الكنبة.

بقيت أنتظر، وأنا أسمع صوتَ ضحكاتهم تعلو وتنخفض من الغرفة القريبة.

الجدران بيضاء تتخلَّلها ثقوب، كانت اللوحات معلَّقة فيها، غير موجودة الآن، اقتلعوها.

الطاولة في وسط الصالون، وُضع عليها أربعة قرائين، وكتب دينيَّة أخرى.

البيت شبه خالٍ من الحياة.

خرجَت زوجته أكثر من مرَّة من الغرفة، إلى المطبخ، تأخذ صحونًا وتُعيدها فارغة، ثم تقفلُ بابَ المطبخ وراءها، دون حتى أن تلتفت إلى وجودي.

حلّ المساء، واختفت أصواتهم.. ربَّما ناموا.

إلَّا أنَّ الحركة في الخارج لا تهدأ، فأصوات دبيبٍ على الدرج متواصل، إلى الأعلى، إلى الأسفل، ولكن لا أحد خبط على باب هذا البيت.

بكلِّ هدوء، ودون أيَّة حركة تُسمع، حاولت أن أفتح الباب، إلَّا أنَّه مُقفل، حاولت أن أفتح الشبَّاك، ولكنَّه كان مقفلاً أيضًا.

لا يوجد في الحمَّام أيّ شيء يمكنني به فتح الباب، حتى المرآة مقبوعة من فوق المغسلة، يأخذون كلّ الاحتياطات لكي لا أهرب، ولكنْ كيف أهرب وكلُّ هذا الجيش في مدخل البناية ينغل كالنمل؟

انتقلت إلى الكنبة، رميت بنفسي بكلِّ قهري المتعب عليها، ولم أستطع أن أغفو.

فكَّرت لو أنَّني أملك ورقة وقلمًا، لأرسم! من أكثر الأمور التي يمكنها أن تنتشلني ممَّا أنا فيه الآن، مخيِّلتي وقلم.

* * *

هجم صوتُ أذان الصبح، كموجة ضباب كثيفة، ليس صوتًا واحدًا، بل عدَّة أصوات تخرج من عدَّة مآذن.

في بعض الأحيان، كنَّا نلتقط هذا الصوت، يصل إلى مشارف قرانا لطيفًا، يحمله الهواء إلينا بعفويَّة.

إلَّا أنَّه الآن يقتحم رأسي عمدًا، مهما حاولتُ صمّ سمعي، تعتقلُ كلماته خلايا تفكيري.

يتحضَّرُ القائد لأداء واجبه، يشحط قدميه كأنَّه يجُرّ نفسه جرًّا. أغمضت عينيَّ فورًا، سمعت صوت المياه، وتمتمات.

اقتربت التمتمات مع خطواته: «أصبحنا وأصبح الملك لله.. سبحانك يا الله..».

واقترب الغراب، الذي بقي يحوم حولي منذ اختُطفت، وهبط جاثيًا على رئتيَّ، يُنذر هذه المرَّة بخراب مخيف!

شعرتُ بنَفَس أبو محمَّد فوق شعري، وضع يده على رأسي بهدوء. لم أتحرَّك، جمّدتُ أنفاسي بحلقي.

كبس بأصابعه على جمجمتي، قائلاً:

ـ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

هل يُعقل أن يذبحني الآن.. كما تُذبح العجولُ كلَّ صباح؟!

قرّب فمه من أذني، قائلاً:

ـ لا يجوز تصنُّع النوم في وقت الصلاة، هيَّا تجلَّسي.

فتحتُ عينيَّ، وإذا به يُقرفص أرضًا، قرب الكنبة، مادًّا سجَّادة الصلاة.

وقف عليها، وتطلَّع إليّ مُضيفًا:

ـ الآن سوف تتعلَّمين كيفيَّة الصلاة، أنظري إليّ، وافعلي مثلي، واحفظي.. ثم نادى:

ـ سلمى سأبدأ بالصلاة، أحضري لها غطاء.

قلت له متمتمة:

ـ لديَّ صلاتي، لا يمكنني أن أصلِّي صلاتك.

رفع سبَّابته إلى شفتيه، بحركةٍ تعني اخرسي.

وتقدَّم خطوتين بهدوء تامٍّ، واضعًا خنجرًا على رقبتي، أخرجه من جيبة جلبابه، وقال:

ـ رقبتك الجميلة، لا تستحقّ الذبح؟ أليس كذلك؟

شدّني من ذراعي بقوَّة، وأوقفني وراءه.

غطّت زوجته رأسي، ووقفت قربي، ثم تقدَّمت قليلاً، وأصبحت أمامي. ابتعدتُ عنها، وعنه، وعن سجَّادة الصلاة، إلى الوراء، ووقفت.

لكنَّ عقلي بقي يسير إلى الخلف، خارجًا من هذا الباب، خارجًا من هذه المدينة، داخلاً إلى معبد لالش!

استدارَ نحوي، وهمس بخشوع يحاول تبنِّيه:

ـ ردِّدي ورائي:

«أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله. . وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله. . ».

أركعُ ثم أسجدُ، ثم أقفُ وراءه، أردِّدُ ما لا أؤمن به، ثم أركعُ، ثم أسجدُ.

عندما انتهى من صلاته، بقي جالسًا يتمتم بينه وبين ربِّه، بشيء غير مسموع، يعقد صفقة ربَّما!

بقيت جالسة وراءهما، أنتظر أن تقوم زوجته سلمى، لأفعل مثلها.

قالت له:

ـ تقبَّل الله يا قائد، جهَّزتُ لك الغرفة.

مسحَ على وجهه مرَّتين، وقال لها:

ـ أدخيلها أنا قادم.

دفشتني بقوَّة إلى داخل الغرفة، مقتربةً منِّي، بعيون تفوح منها رائحة غيظ أعمى، وقالت:

ـ لقد أصبحتِ ضرَّتي، وأنتِ كافرة. من أجل أن تدخلي الإسلام، ارتضيت ذلك.

شدّتني من شعري، وهي تأمرني:

ـ تظاهري بالجنون، سأقتلك إن سمحتِ له بلمسك.

دخل أبو محمَّد، مبتسمًا برضى. ابتعدَت عنِّي، حتى لا يعلم بما كانت تفعله.

قبّلَ جبينها، ثم قال لها:

ـ هكذا يريدُ الله أن تكون الزوجة الصالحة.

أخرجها، وأغلق الباب وراءها، وأقفله بالمفتاح، مرَّتين.

سعادةُ سيروان القصوى، أن يُغلق بابٌ علينا، ويطير بي في فضاءٍ، يختلقه هو، بمهارة عشقه وسط الجدران.

كنت أتدلَّلُ عليه قائلة:

ـ ليلة زفافنا، عندما نصبح بغرفة لوحدنا، لديك مهمَّة أن تحصي عدد شعر رأسي.

يمرِّر أصابعه في خصلاتي:

ـ ما رأيك أن أَعدَّ لك أصابع يديكِ، أنظري.. إنَّهم عشرة، هذا أسهل.

يغمرني، وهو يهمس لي:

«ستكونين زوجتي أنا، لن أسمح لأيِّ أعراف بتفريقنا».

لم تفرِّقنا أعرافنا فقط، بل أعراف غيرنا أيضًا.

أنا، يا حبيبي، في هذه اللحظة، في قفصٍ كحيوان برِّيّ، يُراد ترويضه، ولا أنيابَ له ليدافع عن كينونته.

ومن أجمل أحلام خالتي كوري، حين كانت تأتي صباحًا إلى أمِّي، لتخبرها، رأيت هذه الليلة، يوفا بالفستان الأبيض!

يا خالتي، بموتك مات حلمكِ بأن أرتدي فستانًا أبيض.

أنا الآن، ترتديني أبشع مدينة سوداء، في تاريخ البشر الحالمين منهم والواقعيين.

يفتك بي الواقع الذي أعيشه في هذه اللحظة، كمرضٍ عضال!

قال لي وقد تبدّلت عيناه، واحمرَّ بياضهما:

ـ أخبرني مدير سجن بادوش أنَّك ما زلتِ عذراء، وأنا على هذا الأساس اشتريتكِ.

ـ أنتَ، أَلم تقل إنَّني خادمة لزوجتك؟! لماذا أغلقتَ الباب؟

اقترب منِّي أكثر، رماني على الفراش، اشتدَّ الاحمرار، وتحوَّل لنار تنتقل من عينيه إلى لعابه، الذي سال على رقبتي، ككلب جائع.

حاولت إبعاده عنِّي، إلَّا أنَّه برميل مليء بالأحجار، لا يمكن إزاحته.

صفعني على وجهي، وهو يصكّ أسنانه قائلاً:

ـ لقد دفعت ثمنك بالدولار، أنت ملكي.

ـ زوجتكَ لن ترضى إن لمستني.

بطريقة سريعة، مزّق ثوبي، مُتجاهلاً ما قلته، مددتُ يدي، لأُغلق القماش على نفسي، فلم أفلح.

رمى بكلِّ ثيابي بعيدًا عن مطال يدي.

إنَّها المرَّة الأولى التي يراني فيها أحدٌ عارية!

لم أنظر إليه أبدًا، حيائي أوقد كرهًا عاصفًا بكلِّ أعضائي المكشوفة.

دحش إصبعه بفمي، واضعًا حبَّةً صغيرةً لم أعرف ما هي، وسدّ فمي بكفِّه حتى أبتلع الحبَّة.

صدمني منظره، حين أدار وجهي نحوه لأراه، وجدته قد خلع كلّ ثيابه.

وكانت هذه أوَّل مرَّة أرى فيها رجلاً عاريًا!

يطلبُ العون من إلٰهه، لكي يمدَّه بالقدرة العظيمة، وأطلبُ من إلٰهي تدمير تلك القدرة.

من سيتغلَّب على مَنْ؟ إلٰهه أم إلٰهي؟

تمدَّد فوق جسدي الذي لا يطاوعني، شلّت حركته تلك الحبَّة الملعونة، وحدها روحي تقاوم.

اعتلاني، تجمَّعت سنوني دموعًا متحجِّرةً بأحداقي، أنظر إليه كمن ينظر إلى الفراغ السميك.

يسدُّ بكفِّه فمي، فيتحوَّل صوتي لمسجون فيّ، لا يعرف من أين يخرج، يتخبّط داخل حنجرتي حتى الموت.

أنا الآن تحت المقصلة، ينفَّذُ بي حُكم الإعدام.

بلسانه الذي يلعَق به رقبتي، حبلٌ يلتفّ حولها، يخنقني، أُعدم..

بشفتيه جهنَّم، تلتهمُ كلّ ما خُلق بوجهي، سأبقى أشمّ رائحة جلدي المحترق ما حييت، أُعدم..

أصابعه، رصاصات تغتالني، ملأت دواخلي بثقوب، لا

يمكن أن ترمِّمها سنون، أُعدم..

بحيوانه المتوحِّش المنطلق بداخلي، راكضًا إلى نشوته، يمضغ كرامتي، شلَّعها لآلاف القطع المشوَّهة، أُعدم..

تحت المقصلة، آمنت أنَّ الآلهة لا تخفِّف عقوبتي، ولا تزيدها، لأنَّها نائمة منذ زمن، أو ربَّما لم تستيقظ أبدًا.

أفرغَ كلّ جوعه بباطني، ثم عاد يعتليني، ثم شبع، ثم أفرغ كلَّ جوعه بباطني، وأنزل المقصلة أخيرًا على روحي!

***

أنامت جسدي ووعيي حبَّة المخدِّر، إلَّا أنَّ لاوعيي كان يقظًا، ليحفر بذاكرتي كلّ الجرائم التي ارتُكبَت، حتى لا يجرؤ غبار النسيان أن يُخفي ما لا يحقّ له أن يُخفى.

كالماء المتدفِّق من أعالي جبل سنجار، تنزل لتروي سهل الجبل، كانت يد أمِّي فوق جروحي، ترطِّبها.

كالعشب الأخضر النابت بين الصخور، شفاه سيروان، وهي تُعيد الحياة لوجهي.

قدماي لا تهدآن، تركضان بي إلى حقل أبي، تحت أشجاره الكبيرة المزهرة، تنشَّقت هواءً، انتشر سريعًا بكلِّ عروقي.

ناداني أبي، التفتُّ إليه، وكانت يداه معفَّرتان بالتراب الأحمر، سكبت فوقهما ماءً صافيًا. بلَّلت كفِّي، وأخذت أمسح له عرق وجهه.

جميلٌ، نقيٌّ وجه أبي، بالتجاعيد، ورغم الرصاصة المسطَّرة بجبينه.

قلت له بسعادة:

ـ أبي. . هلَّا ضممتني إليك.

تطلَّع بعينيَّ، وكانت الشمس تجبرني على إغماضهما من شدَّة وهجها، قال لي:

ـ لا تغمضي عينيك للشمس يا ابنتي، فالأرض ستفعل مثلك، وأنا لا أريد لأرضنا أن تموت.

ـ لن أُغمضهما يا أبي.

فتحتُ عينيَّ، وإذا بالعتمة تحيطني. نورٌ فقيرٌ يهرب إليَّ من الشقِّ بين الباب والأرض.

كمن كان في معركة. كلّ جسدي يؤلمني، تجلَّست زاحفة إلى المكان الذي رمى به ثيابي، ارتديت الفستان الممزَّق، لأستر نفسي مخافة أن يُفتح الباب فجأة، وأنا ما زلت عارية.

تقوقعتُ على الفراش، لست أدري إذا كنت أشعر بكلِّ شيء، أو أنَّني لا أشعر بشيء، لهذا الحدِّ أتوه بأعماقي المتكسِّرة.

لا أجرؤ على لمس جسدي، كأنَّه ليس لي، أو كأنَّني أُعاقب نفسي، لأنَّني لم أستطع الدفاع عنه.

هل خنتُ جسدي؟ كان يجب أن أموت وأنا تحت المقصلة.

لماذا لم أمت بعد كلّ تلك الإعدامات؟

إذا كان الصباح يعود على كلّ الناس بالخير، ويتبادلون جملة:

صباح الخير، بشكل عاديّ.

فإنَّ الصباح ليس كذلك عندي، وعند بنات جلدتي.

بقايا دماءً جافَّة، متخثِّرة، على فخذيَّ، نزفتُ طيلة الليل دون أن أشعر.

وكأنَّ يدي الآن تمسك الورقة، التي كان يتركها لي سيروان بعلبة الدواء:

«هذا سيخفِّف صداعك، إنَّما ماذا أفعل بك يا صداعي؟ ودوائي هو المستحيل، ثلاث قبل على شفتيك، ثلاث مرَّات في اليوم!».

صداعي الذي تملّكني، استحضر الحلم نفسه، كنتُ في

الغرفة المظلمة المغلقة، وبدأت الجدران تضيقُ، حتى لامستني. خبطتُ على الحائط، انفتحت كوَّة صغيرة، ثم ما لبثت أن انسدّت بالظلام، وبدأت أختنق.

إلَّا أنَّني خبطتُّ مرَّات متتالية على الحائط بقوَّة، مددت أصابعي لأطال حفنة نور، فانثقب الحائط، ورأيت النور يسبحُ خارجًا، دون عازل العتمة بيننا.

لكنَّ العتمة بقيت تخنقني!

شعرت أنَّني أريد التقيُّؤ، ركضتُ إلى الباب أخبطُ عليه، وأصرخ.

فتحت سلمى الباب، ووقفت عند عتبته، لا تدعني أمُرّ.

أبعدتها بما تبقَّى لديَّ من قوَّة، ودخلت الحمَّام، تقيَّأتُ ما دفقه أمس بداخلي.

كانت تنتظرني عند الباب، كمشتني من ذراعي، وهي شبه منهارة، كأنَّها فقدت عقلها أكثر ممَّا هو مفقود:

ـ هل أنت حامل؟ حامل؟

ـ لا يمكن لي أن أحمل، وهل يظهر الحمل بهذه السرعة؟

ـ كاذبة؟ لماذا إذا تتقيَّئين؟

ـ لديّ صداع.

لم تصدِّقني أبدًا. كانت ترعبها فكرة أن أنجبَ لزوجها طفلاً، ولكنِّي لم أكن بحالة تسمح لي أن أُبعد عنها أوهامها، وأطمئنها بأنّني محقونة بإبرة منع حمل.

أعطتني ثيابًا نظيفة، أمرتني أن ألبسها بسرعة.

كيَّستني بعباءة ونقاب، بعدها كيّست نفسها، وأنزلتني إلى الطابق الأوَّل.

الطابق الأوَّل، خليَّة نمل لا تهدأ، عناصر مُلتحية وثياب سوداء، أسلحة محشوَّة بالرصاص.

نادت على أحدهم، وأمرته:

ـ صالح، لديك مهمَّة، أدخلها الحمَّامات، والغرف، يجب أن تقوم بتنظيفها، ولا تنسَ أن تعطيها كلّ الثياب المتَّسخة للغسيل.

ـ أنت تأمرين يا أخت أمّ محمَّد.

قبل أن تترك ذراعي، أضافت:

ـ إيَّاك أن تتركها تهرب.

نظرتُ إلى وجوههم، كلُّهم أبو محمَّد! هل هو صداعي؟

المكان مليء بالقذارة والأسلحة، اشتهيت أن أسرق واحدة، أُنهي بها حياتي، تأتي الفكرة، وتنزلق كالصابون بين يديَّ.

صالح يراقبني بتلذُّذ..

أخذني لتنظيف الحمَّامات، شدَّني إليه قائلاً:

ـ ما رأيك لو تريني وجهك؟

أبعدته عنِّي، وهدَّدته بأمِّ محمَّد، فخبطني بالحائط، وقال:

ـ عندها، سأقتلك.

رأسي يدور بالمكان، كأنَّه يتخبط بكلِّ الجدران، تقيَّأت.

فخرج، وهو يشتمني..

رمى لي بكومة ثياب، منها داخليَّة لم أقدر على لمسها.

بدلات عسكريَّة، وكنزات مليئة بروائح القتل، والبارود.

إنَّها أعمالٌ أكثر من شاقَّة، أن أُنظِّف ثيابَ سجّاني، المتَّسخة بدمائنا!

بعد نهارٍ مُتعب، أدخلتني أمّ محمَّد غرفتي، وأقفلت عليّ.

كان أذان العصر يرتفع بالمآذن. دخل أبو محمَّد، أمرني أن أصلِّي وراءه.

إنَّها الصلاة التي تسبق المقصلة!

طلبتُ منه أن يسمح لي بالاتِّصال بأهلي، لكنَّه رفض، ثم تمتم بينه وبين إلٰهه. أخرجَ حبَّة المخدِّر، وضعها بفمي، ولكنَّني أخرجتها، وخبَّأتها تحت الوسادة.

حاولت خداعه بأنَّني تخدَّرت. لم أقاوم، نجحتُ بتجاوز ذلك الملح الذي يكبس به على جروحي.

أسبوعان صلَّيتُ فيهما إحدى وعشرين صلاة، وتحت وسادتي عشرون حبَّة..

أنزلني أبو محمَّد إلى الطابق الأوَّل لكي أنظِّف، كما كلّ يوم، ورحل..

كان الوقت مناسبًا لكي أهرب. لم أخطِّط، لكنِّي رأيت أنَّ القدر أتاح لي فرصة لن تتكرَّر، فأمُّ محمَّد ليست في المنزل منذ الصباح، ولا يوجد عناصر هنا. ربَّما جميعهم في المعارك، أو

ذهبوا لزيارة أهاليهم، أو إلى الجحيم.

نزلت إلى الطابق الأرضي، البوَّابة مفتوحة دون حراسة.

خرجتُ منها إلى الشارع، ومشيت مبتعدة عن المبنى، أتلفَّت حولي، أرى كلّ شيء من تحت النقاب، ولا أحد يراني. مع كلّ خطوة، تنفكّ عقدة من السلاسل الملتفَّة حولي.

إلى أن كبَّلني صوت منخفض من ورائي:

ـ توقَّفي أو أطلقت عليك رصاصة؟

إنَّه صالح الحقير، توقَّفت وقلت له:

ـ خرجت لأشتري بعض الأشياء

ـ أتعلمين ما هي عقوبة من تحاول الهرب؟

ـ لا أريد أن أهرب.

ـ اخرسي.

عندما عدنا إلى الطابق الأوَّل، هدّدني، بأنَّه سيُخبر أبا محمَّد عندما يصل، توسَّلت إليه أن لا يفعل ذلك.

نظر إليَّ، وقال بثقة:

ـ إذا دخلتِ الغرفة معي ربَّما أنسى ما رأيته.

كأنَّني أصفع نفسي، أنا من أعطى هذا الحقير سببًا للابتزاز.

فرفعت النقاب عن وجهي، وبصقت بوجهه:

ـ أنا من سيخبره ليقتلني ويرحمني.

عاد أبو محمَّد وكان صالح بانتظاره، موجِّهًا بندقيَّته نحوي طيلة الوقت.

بادر بالكلام:

ـ لقد حاولت الهرب يا قائد. . كنت أراقبها، رأيتها تخرج من الباب كاللصوص.

أدخلني أبو محمَّد الغرفة، رماني أرضا تحت أقدامه، وكحمار أخذ يرفسني، ولا ينفكّ يصرخ مكرِّرًا: «يا عاهرة».

لم يرتوِ، خلع سرواله، واعتلاني.

علا صوت سلمى في الخارج، وهي تطرق الباب بسرعة، تتوسَّله أن يفتح.

لم ينسلخ عنِّي، إلَّا حين سمع صوت امرأة تناديه:

ـ عاطف واجه أمّك كالرجال.

خرج يحاولُ استرجاع أنفاسه، تكمَّشت به سلمى، وقالت:

ـ أنا حامل، والدتك كانت معي عند الدكتورة. . والآن، الله منّ علينا، وحقَّق طلبنا.

وضعَت يدها على بطنها، وسمّرت نظراتها بعينيه لتستخرج الأب من داخله، وقالت:

ـ هذا محمَّد هنا، لأجله ليس لأجلي، تخلَّص منها.

اقتربت أمّه، غضَّت النظر عنِّي، رفعت إصبعها بوجهه قائلة:

ـ عاطف، إن غضبت عليك هذه المرَّة، فلن أرضى عنك حتى يأخذ ربِّي أمانته.

استدار نحوي، وقال بنبرة مستعجلة:

ـ إلحقي بي يا جارية.

وضعت الحبوب بجيبة بنطالي، ورميت النقاب على وجهي خارجة من هذا الجحيم، إلى جحيم آخر. .

ـ ٥ ـ

أقف أمام قاضٍ، يتجاوز عمره الخمسين، على الطاولة دفتر كبير، وسيف صغير يحرِّكه بيديه، متفحِّصًا بما كُتب في الدفتر.

ثم همس: بسم الله، ونظر إليَّ، قائلاً:

ـ ارفعي النقاب عن وجهك يا ابنتي.

رفعته، فبحلق بوجهي، وأرجع ظهره إلى آخر الكرسيِّ، وهمس مبتسمًا:

ـ تبارك الرحمٰن بما خلق.

تملَّكني شعور بالخطر، كمن رُمي ببحيرة، ليلتهمه تمساح يختبئ تحت الماء، وهذا يختبئ تحت بياض لحيته.

أضاف:

ـ لماذا تريدين الهرب؟

ـ لأنَّني يا حضرة القاضي أُغتصب كلّ يوم مع الأذان، هل هذا مقبول؟

ـ لكنَّه الشرع، وأنت سبيَّة.

هممت بأن أحكي، رفع يده بوجهي، وأكمل كلامه:

ـ ألم تدخلي الإسلام بعد؟

ـ ألا يمكنني البقاء على ديني؟

قرّب جسده من الطاولة، وهو ينظر إليَّ، نظرات رائحتها نتنة.

قال:

ـ سأخبرك، أنَّك وبحسب الحكم، سوف تجلدين على قدميك. هذا عقاب من تهرب من دولة الإسلام.

نظر إليَّ، وصمت برهة، ليرى مفعول كلامه على ملامحي.

وعاد يكمل:

ـ إلَّا أنَّني أريد مساعدتك.

ـ كيف لك أن تساعدني؟ هل ستخالف الشرع؟

ـ لا، ولكنْ هناك دائمًا حلول يمكننا الاستعانة بها، ولأنَّك من غنائم الدولة، يمكنك أن تخلعي ثيابك، لأرى كامل جسدك. هذا حلٌّ ارتآه الشرع، لتخفيف عقوبة الجلد على الغنائم النسوة.

ـ لا، لن أفعل أبدًا.

حسنًا، يمكنكِ أن تريني جزءًا من جسدك، صدرك أو فخذك، أو..

قاطعته، وأنا بدأت أتحسَّس ضربات السوط على باطن قدميَّ:

ـ لن أريك شيئًا.

جلدات لا يمكن لإنسان أن يتحمَّلها، شعرت بقدميَّ تتخدَّران، تتشقَّقان وتنزفان.

وما زالت الضربات تهوي عليهما..

صوتي كان يخرج منِّي، كأنَّه لإنسان آخر، يعوي كريح عاصفة مجنونة.

كالنار التي تلامس الزيت، تهبُّ الحرائق بباطن قدميّ، وهما تُجرّان على الإسفلت، إلى أن وصلتُ، ورُميتُ أمام أبو محمَّد، كيسَ علفٍ، مكوَّمًا عند قدميه.

في صالة المحكمة، التي تمتلئ جدرانها بصور الفتيات الإيزيديَّات، كُتبَ أسفل كلّ واحدة منها، اسم المالك ورقمه من أجل الاستسفار عن المواصفات.

أمَّا أرضًا، فتنتظر مثلي عشرات الفتيات، لم أستطع التكلُّم مع إحداهنَّ، فكلُّ واحدة مشغولة بمصيرها.. هذه تُباع، وهذه تُبدل بأخرى، وتلك تُقدَّم كهديَّة.

أتمعَّن بوجه كلّ واحدة منهنّ، كأنِّي أعرفهنَّ جميعًا، كأنَّني عشت كلّ طفولتي معهنَّ.. أشمّ رائحة سنجار.

تقدَّم أحد الرجال إلى أبو محمَّد، يسأله عن سعري، ومواصفاتي، لكنَّ أبو محمَّد رفع حاجبيه، وقال له: «إنَّني لست للبيع».

ثم أتى إليه عنصر من موظَّفي المحكمة، تحدَّث معه بصوت

خفيف، وأنا أنتظر القدر الذي يُحاك لي، لأنتعله بأقدامي المتورِّمة.

وقف أبو محمَّد، وقال للعنصر:

ـ إذًا، خذها أنت الآن، وثمنها لا أريده. حين تُباع مرَّة أخرى، فليذهب الثمن للفقراء.

ـ جزاك الله خيرًا يا قائد أبو محمَّد.

سحبني العنصر من يدي، وأوقفني رغمًا عنِّي، لأمشي. أركبني بسيَّارة رباعيَّة الدفع سوداء، وقال للسائق:

ـ هذه تؤخذ إلى المقرِّ الثاني.

ابتسم السائق، وهو يمازحه:

ـ يا ليتني كنت جنديًّا في المقرِّ الثاني!

في طريقنا، حاولت فتح الباب، بيديَّ المكبَّلتين لأرمي نفسي، لكنَّه مقفل.

أخذ السائق يضحك، وهو يكرِّر:

ـ صاحٍ لكنَّ يا إيزيديَّات.

* * *

وُضِعتُ في غرفة صغيرة، تحوي سريرًا واحدًا، ولها نافذة صغيرة أعلى الحائط، تُركت هنا لوحدي، حوالى نصف ساعة.

إنَّها عقوبة مخفَّفة، أن أُحبس بغرفة صغيرة.

أغراني شكلُ السرير، لأمدِّد عليه نفسي وقدميَّ.

لا أريد أن أخاف. إلَّا أنَّ رائحة الخوف، كانت تتسرَّب من

مسامي، أحاول تذكُّر رائحة عطر سيروان، كم كان رائعًا! يدفعني إليه بدون وعي، فأعانقه، وتعلق رائحته عليّ حتى بعد رحيله.

كالغاز، بدأ الخوف ينتشر بكلِّ زوايا الغرفة!

دخل هواءٌ جديد عندما فتح الأمير الباب، ومعه جنوده. وضع يده على رأسي، وقال:

ـ الليلة، هذه هي مكافأتنا.

* * *

وأنا وسط هذه الزحمة القاتلة، شددت ثوبي، ليغطِّي كافَّة جسمي حتى أصابع قدميَّ، فأختفي.

خمسة جنود، أوَّلهم أميرهم تناوبوا عليّ.. احتلُّوا كلّ القلاع، دمَّروا كلّ المدن، قطعوا رؤوس من اشتهاها سيفهم، أسالوا دماء آلاف من البشر، ورموا بجثثهم بين جلدي وعظامي، كالقادة التاريخيين!

استفقتُ، وإذا بي مرميَّة بظلامِ تابوت، ميِّتةٌ، مدفونةٌ بجسدي المظلوم.

الغرفة باردة، نزيفُ ما بين فخذيَّ حارٌّ، يتدفَّق دون توقُّف.

هل هو دمي وحدي؟

ممدَّدة بهدوء، وروحي تعصف، تتكوَّر، وتزمّ نفسها لتنزلق من ثقوبي، ثم تعود من جديد، لتدخل من الثقوب نفسها، كالجنين الذي وُلِد للتوِّ، ويحاول العودة إلى رحم أمِّه، لماذا لا تغادرني روحي، فأرتاح؟!

السكون مع الظلام، إذا اجتمعا توحَّدا، يكونان مرعبين. كنت أطلب من أمِّي دائمًا أن تبقى قربي لأنام، أن تتكلَّم أيَّ شيء، لا أطيق الظلام الساكت، الكلام يُشعل قناديل وضَّاءة أمامي، فلا أخاف.

أنا الآن وحدي، لا أسمع سوى أنفاسي، وبداخلي آلاف الأنفاس تتعارك.

أُغمض عينيَّ، تخفُّ العتمة، كأنِّي أرى دوائر بيضاء، أشعر أنَّني أدور مع الأرض.

أنا ابنة الشمس، ستدور الأرض حولي، يومًا!

أعادني السائق نفسه إلى مبنى المحكمة. جلستُ على مقعد بصالة العرض. الوضع على حاله، تُباع الواحدة تلو الأخرى، أو تُبدِّل، بحركة دائمة، كسوق الأغنام.

انتظرت كلّ ما قبل الظهر، أشاهد وأحفظ، أريد أن أخرج من هذه المدينة، لأصرخ بوجه العالم كلّه عمَّا يدور هنا.

أسجِّلُ كلّ ما يحدث، لأرسمهُ، ويبقى الحبر بلوحاتي ينزّ، ولا يجفّ أبدًا.

وإن متّ قبل أن أخرج من هنا، سأكتب على جلدي الميِّت رسالة لمن هو في الأعلى، سأوثِّق له كلّ ما حدث، بالأسماء، بالأيَّام، والوجوه، لأنَّني أعلم، ولا يعلم، وليكن لموتي دلالة، أنَّني أوصلت على جسدي للأعلى رسالة.

بعد أذان الظهر، بدأ الشارون والبائعون بالتوافد. موظَّف

المحكمة يسرد مواصفات الفتيات، يسلِّم هذه، ويستلم تلك، وأنا أُدير بوجهي جهة الحائط.

تقدَّم رجلٌ كبير بالسنِّ يتفقَّدني عن قرب، يحكّ مؤخّرته، ويمطّ شفتيه. نادى على موظَّف المحكمة مستفسرًا عن سعري، وجده غير مناسب. عدَل عن رأيه، وابتعد يبحث عن أخرى.

ألزقت وجهي مجدَّدًا بالحائط، أشمُّ رائحة الباطون، وأسمعُ رجلاً يقول:

«هذه جيِّدة سأهديها لأخي، وأريد لنفسي عيونًا خضراء».

فأغمضتُ عينيَّ!

في المقعد الخلفيّ للسيَّارة سبيَّتان، لكلٍّ واحدة منَّا قدر: رهام، التي لم يتجاوز عمرها الخامسة عشرة، بجسدها النحيل، الأقرب للطفولة منه إلى الصبا، تبكي، تهسهس بالأدعية. وأنا أحاول رسم قلاع جديدة بداخلي.

أنقل نظري عليها وعليّ، لو أنَّ لي قدرة على جَلْد هذا الكون!

أتأمَّل الشاري من الخلف، يديه التي تمسك بالمقود، هل لاعبت هاتان اليدان أطفالاً؟ أو غمرت أمًّا؟

عدّل من وضع المرآة أمامه، حتى قبضَت على وجهي، اعتقلَته بداخلها، فحرَّرتُه بالالتفات يمينًا إلى الخارج.

عندما وصلنا إلى منزله، أنزلني وحدي من السيَّارة، انفجرت رهام بالصراخ، وهي تشدّ على يدي أن لا أتركها.

أدخلني إلى غرفة، وهو يخبرني بنبرة منخفضة.

ـ لن أتأخَّر، سأعطي الفتاة لأخي، وأعود.

أضاف، وهو ينظر بعيني:

ـ إنتظريني.

في الغرفة، امرأتان إيزيديَّتان، «دلدا» و«روناهي»، هما أيضًا سباياه.

تحكي كلٌّ منهما قصَّتها، فدلدا حامل بشهرها الأوَّل، تخاف أن تبقى هنا شهورًا طويلة، إلى أن ينتفخ بطنها، ويبان حملها، فيظنُّ الداعشيّ أنَّها حملت منه، أو من داعشيٍّ قبله.

ولا تجرؤ إخبارهم أنَّها حامل من زوجها، فيضربونها حتى تجهض، كما فعلوا مع جارتها، ضربوها على بطنها، وأعطوها حبوبًا، بقيت تنزف ثلاثة أيَّام حتى ماتت.

كسيول الأمطار بالأزقَّة، تنجرف الأفكار برأسي.

هل يُعقل أن أحمل من أحدهم؟

أعتمد على تلك الإبرة بأن تنقذني.

روناهي أمٌّ لولدين، كانا يزوران جدَّيهما في اليوم الأسود ـ ٣ آب، ولم تستطع التواصل مع أحد، لتطمئنّ إن كانا بخير، واستطاعا الهرب إلى الجبل مع أهلها.

كان حديثنا مثل دملة تنفقئ.

عاد الشاري أبو هاجر التونسيّ، وضعني في غرفة أخرى منفصلة. أحضر طعامًا، طلب منِّي مشاركته.

كنت جائعة جدًّا، فقد مضى عليّ أكثر من يوم، لم يدخل غير الماء القليل إلى جوفي.

قال من بعد أن أنهى طعامه، واستلقى على الفراش:

ـ تعالي إلى جانبي.

قلت له لأستعطفه:

ـ أنهكني الجَلْد، والمقرّ الثاني كان قاسيًا جدًّا. إنَّني متعبة، هل يمكنني أن أرتاح؟

سكونٌ هادئ كغيمة، تسبح متباطئة بجوِّ الغرفة الذي يجرّني إلى النوم، فأقاومه، ولكنْ لماذا أقاومه؟

وإن غفوت ما الذي سيحدث؟ فكلُّ شيء حدث، وحدث مرارًا، وما عاد يُخيفني إن حدث مرَّات أخرى.

تصلّب جسدي بوجه أمواجهم الزاحفة لتفتيتي كصخرة.

وإن ضعف، لن أدعه ينهار، ويغرق إلى القاع المخيف، حيث الحيتان تفتح أفواهها الجائعة.

سأبقى صخرة، تشقّ سطح الماء المالح، ولن تفتِّتها كلّ هذه الملوحة!

وقفت أمام الشبَّاك الذي يتوسَّط الحائط، فتنفَّست!

الشبَّاك يطلّ على حقلة مزروعات صغيرة، تفصل ما بين المنزل وباحة كبيرة، أشبه بالملعب الممسَّد بتراب، وعلى أطرافها بيوت متفرِّقة. الشمس بدأت ترمي نفسها بأحضان تلك التلال البعيدة، وتولِّد ألوانًا رائعة.

أرى تلك الألوان ترسم غروب جبل سنجار، كأنَّها ألواني، تخرج من فوَّهة ريشتي، كالرصاص المدكوك ببندقيَّة سيروان، كلانا يقاوم!

بقدميَّ الحافيتين، توجَّهت نحو الشمس، وشبكت كفَّيَّ، أسندتهما إلى صدري، جهة قلبي، لأصلِّي.

أصلِّي صلاتي الأولى، من بعد ذلك اليوم الأسود.

أتمتم، دون أن أحرِّك شفتيَّ، كمدمن يأخذ جرعة إدمانه بالخفاء، وينتشي سلامًا، دون أن يكتشف أحدٌ سرَّ سعادته.

بطريقةٍ سريعة أصلِّي، قبل أن أسمع صوتَ الأذان يعلو بالمآذن، قبل أن أُجبر على صلاتهم. أنهيت صلاتي!

***

في الصباح، سمعت دلدا وروناهي، تناديان عليَّ من وراء باب غرفتهما. اقتربتُ من ثقب الباب، عجنتُ أذني به، تطمئنَّان عليّ، من بعد أن شاهدتا من شبَّاكهما المُطلّ على المدخل الأساسي للمنزل، أبو هاجر وهو يغادر.. أخبرتهما: «أنَّه لم يكن عندي، وأنِّي غفوت للصباح، ولم يحدث شيء، يا ليت كلّ الأيَّام تكون كذلك»!

ردَّت دلدا:

ـ إلَّا أنَّه ليس كلّ ما نتطلَّبه نلقاه.

أحببت زوجي منذ ثماني سنوات، ولأنَّه متزوِّج(١)، ولديه

(١) تعدُّد الزوجات شائع لدى الإيزيديِّين، وليس هناك من عدد محدَّد للزوجات في آن واحد.

أطفال، لم يقبل أبي به زوجًا لي أبدًا.

سألتها بحشريَّة:

ـ هل كان من طبقتك الدينيَّة نفسها؟

ـ بالتأكيد، إلَّا أنَّ ما دفعني لاتِّخاذ قرار حياتي، قصَّةً تناقلتها جارتنا، عن أمِّها وجدِّتها، أنَّه في إحدى قرى سنجار، منذ زمن طويل، أحبَّ شابٌّ وفتاة بعضهما بعضًا كثيرًا، ولكنَّ أهل الشابِّ رفضوا تزويجه منها، لأنَّها من عائلة فقيرة، ولم يتزوَّجا، لكنَّهما تعاهدا على الحبِّ الأبديِّ..

وبعد مرور السنين الطويلة، في عمر السبعين، مرضَت الفتاة العجوز كثيرًا، امتنع جسدها عن تقبُّل الطعام طيلة ثلاثة أيَّام. فقط، اسم حبيبها كان يرطِّب شفتيها، إلى أن ماتت، وهي على عهدها الأبديِّ..

أبلغته فورًا بعد أن سمعت القصَّة، أنّني مستعدَّة للهروب معه، على طريقة ما يُعرف بـ «الخطيفة»(١)، وتزوَّجنا منذ سبع سنين، ثم في اليوم التالي تمَّت مصالحتنا مع أهلي. كان ذلك سهلاً، إلَّا أنَّ سعادتي لم تكتمل، مضت السنون دون أن أحمل.

ومنذ شهرين حملت، عندها، ظننت أنَّ دعواتي لاقت آذانا

---

(١) الخطيفة: هي هروب الفتاة مع الشابّ الذي تحبُّه دون علم ورضى أهلها.
يسود عرف في المجتمع الإيزيدي أنَّ الفتاة التي تهرب مع حبيبها وتتزوَّجه، تتمّ مسامحتها من قبل أهلها ومجتمعها فورًا، رغم عدم القبول به من قبل، على شرط أن يكون من طبقتها الدينيَّة نفسها.

صاغية، من خودا وطاووس ملك.

ولكنْ، في ذلك اليوم المشؤوم، حين رفع أحد العناصر الذين هاجمونا، ساطوره بوجه زوجي، عندما رفض الدخول في دينهم، أدركت أنَّ صفقتي مع الدعوات خاسرة. كدت أتقيَّأ جنيني، وأنا ألاحق كتلة رأس زوجي المتدحرجة أرضًا.

هذا الشبَّاك نافذتي الوحيدة إلى العالم الخارجيّ. سماء نصف أيلول اليوم، لبست البرودة. أراها بعيدة لا يمكن ليديَّ، حتى لو ارتفعتا عاليًا، أن تطالها.

وتلك التلال، كأسوار كبيرة، يرتطم نظري بها، ويعود إليّ مخذولاً، لا يمكنني أن أبتعد عن هذه الغرفة أكثر من تلك الحدود.

أمدّ أنفي بين حديديتيْ الشبَّاك، كمنقار طير أحاول عبّ الهواء ما أمكنني، لأحتفظ به، وأتنفَّسه حين يزداد اختناقي الليليّ.

تحدِّثُني نفسي بجرأة، لم أعتدها بها. لو كان أبي وأمِّي ومجتمعي، خُيِّروا بين أن أحبَّ سيروان، وأتزوَّجه، وأبني بيتًا رائعًا معه، أو أن أكون هنا مع هؤلاء كلّ يوم ببيت أحدهم، وكلَّ ليلة تحت واحد منهم.. ماذا كانوا فضَّلوا؟ هل كانوا سيكسرون

إطار أعرافهم، ويضعون صورة عرسي بدلها؟

تلك الأعراف الطبقيَّة كمحكمة عمياء، زجَّت بي بسجن العيب، والحرام، والممنوع.

لو أنَّني عربشت عاليًا، وقفزت من على أسوارها العالية المشوَّكة، وهربتُ إلى الحياة، إلى الحبِّ، إلى الجنَّة.. إلى سيروان.

ربَّما كان أبي سيحزن قليلاً، وأمِّي تبكي بضع ليالٍ، والناس ستنسى مع الوقت قصَّتي.

ولكنِّي كنت سأعيش كما أريد، كنت سأرسم أيَّامي بالألوان التي أحبّ، بألوان عينيْ سيروان، تلك العسليَّة كالشهد، كتين أبي.

لفتت نظري الحركة التي ملأت الباحة الممسَّدة بالتراب، أطفالٌ كثر، انصفُّوا كالعسكر، ورجال ملتحون يشرفون على النظام.

بدأوا بالتدريب: الأطفال يطلقون النار، باتِّجاه أكياس موضوعة فوق بعضها بعضًا.

يا خودا[1]! كيف استطاع ذلك الصبيّ الصغير أن يحمل بندقيَّة أطول منه، ويطلق النار؟

من بعد أن أنهوا هذا الدرس، بدأوا معهم بالتمارين الرياضيَّة العسكريَّة. ومع كلّ حركة، تصلني هتافاتهم بصعوبة: «نحن

---

(١) خودا: هو الله.

الأشبال، أشبال الخلافة، الله أكبر..».

اختنقت رغم شدَّة الهواء الذي يقتحم فمي المفتوح من شدَّة الذهول!

خفت أن تمدّ إصبعها، إلى دماغي، فكرة أن يكون أخي بينهم.

إلَّا أنَّها مدَّت كلّ أصابعها، وحرّكت المياه الراكدة بظنوني.

ربَّما كان أخي في إحدى معسكرات هذه المدينة!

* * *

شفان، عمره لم يتجاوز السادسة بعد، لكنَّه يرى نفسه بطلاً خارقًا.

يقفز من سرير إلى سرير، ينطنط بين أشجار أبي، راكضًا لينقذ الأبرياء من الأشرار.

في الصيف الماضي، وجد قرب شجرة التين الكبيرة عصفورًا صغيرًا، لم ينبت له ريش بعد، وقع من فم أمِّه ربَّما! حمله ملء يديه، وهو يركض نحونا، صارخًا بكلِّ سعادة: «لقد أنقذته».

إنَّهم يزرعون برأسه الأوهام القاتلة، وعليه محاربتنا، نحن الكفَّار.

* * *

قُبيل الغروب، أعلمتني دلدا من ثقب الباب، أنَّ أبو هاجر قد وصل. أحضر لي طعامًا. ومن بعد أن أنهيته، طالعني بعيون تبرق، وسألني:

ـ هل تعرفي أن تقرأي بالعربيَّة؟

ـ أعرف.

سحب محفظة جلديَّة من جيبه وأخرج منها ورقة، جلس بالقرب منِّي واضعًا الورقة بين يديَّ، وأشار لي أن أبدأ بالقراءة:

«إشرب خمرتك

لأزهر أمامك

ككرم عنب!

تشتهيني

فتغمرني..

فأعتصرُ

وأتخمَّر..

ثم في الليلة التالية،

تشربني

وتسكَر..

فتراني أمامك..

كرومًا

تريدُ أن تُعتصر»

أذهلني ما قرأت، وانتشى بما سمع!

طلب منِّي إعادة قراءتها، ولأكثر من مرَّة ، ثم قال لي:

ـ أريد منك أن تحفظي قصيدة «اشرب خمرتك»، لتلقيها

وأنت تنظرين بعينيَّ، من دون أن تزيحي نظرك عنِّي، كما كانت تفعل هاجر، حبيبتي، قبل التوبة.

ثم أضاف:

ـ إنَّها تشبهك كثيرًا

ثم، بعجلة، همَّ وأخرج من المحفظة الجلديَّة نفسها صورة صغيرة، لفتاة في العشرين من عمرها، لا شيء أتشاركه معها، سوى لون عينيها الأخضر.

القصيدة بين يديّ، أعيدُ قراءتها بعينيَّ، بصمت.. أتساءل هل يشترك جميع العشَّاق بالخطايا نفسها؟

سافرت عبر كلماتها إلى بيتنا المهجور، وصلته متأخِّرة عن موعدنا.. سيروان ينتظرني منذ ساعة، دخلت إليه، وجدته يغنِّي، والجعة (المشروب) بيده، لم يكن سكرانًا، بل مجنونًا.

حملني، وأخذ يدور فيّ، وأنا بين يديه أدوخ، وأُزهر.

جلس على الأرض، تطلّع نحوي، مسك يدي، دون أن يدير وجهه نحوي، وقبَّلها، ثم فجأة لزق وجهه بوجهي، وترك شفتيه تنسكب بشفتيَّ، للمرَّة الأولى، كأنَّه الخمر، وأنا الكأس. كأنَّه يغنِّي، وأنا أرقص.

أنفاسه الثملة أسكرتني، بقي مذاقها يملأ لعابي هذيانًا.

* * *

لثمني أبو هاجر، تبدَّد الهذيان، وانتشر الصحو بفمي.

هل هذا لثم، أم عضّ؟

يطلب منِّي أن أنطق «أحبُّك». لم أقلها. يُصّر، ولم أقلها.

يعتليني، أراه يمتلئ شهوة، سينفجر.

ولكنْ ما كان يخفِّفْ عذاب مقصلته، أنَّه يهمس لي باسم هاجر، يعنيها ولا يعنيني.

جسدي يتمزَّق، يعوي ككلب، لا يهدأ ولا يسكت، أرفع صوت الموسيقى بداخلي، علّني أخفي جعيرًا، يتسلَّق قمم عجزي، صارخًا بوجه عزيمتي: «اكسري قيود مغتصبك واهربي!»

لملمت أجزائي الباقية قرب جسده المهترئ، احتضنتها، وبكيت كثيرًا.

هذه يدي التي ما ملّ حبيبي من تقبيلها، تصفعني، بعد أن فقدت قدرتي بأن أقاوم أصابعه المتوحِّشة بخنق أصابعي.

* * *

في صباح اليوم التالي، قلت له:

ـ هل يمكنني أن أطلب شيئًا؟

ـ قولي ما ترغبين.

ـ أخي شفان، عمره ستّ سنوات، هل لك أن تسأل لي عنه مع أشبال الخلافة؟

كرَّر اسم أخي، كدرس يحاول حفظه، وامتصَّ فرحي بقبلة طويلة على شفتيَّ.

ـ سوف أسأل أخي ساجد، لأنَّه يعطي دروسًا دينيَّة للأشبال.

فور مغادرته، اجتمعنا حول ثقوب الأبواب، كأنَّنا في جلسة شاي، والإبريق ساخن.

قالت روناهي بنبرة يثقلها الهمّ:

ـ كم أشتاق لرائحة التراب بكرمي، ليس كبيرًا، ولكنَّ زوجي جعله على هيئة جنَّة. تحديدًا في مثل هذه الأيَّام من السنة يبدأ العنب باكتساء ألوانه الشهيَّة، لديَّ من كلّ الأنواع، الأحمر، والأبيض المُخضرّ.. نقطفها بحماس، تاركين الأولاد يشاركوننا بقطف الرزق، الذي نعيش منه. قسم من المحصول أعصره، وأخزِّنه للشتاء.. لو خرجنا من هنا سأدعوكما لتذوُّقه، ذلك الطعم الساحر، قرب المدفئة، وأطفالي حولي.

تصمت، ثم تضيف بحسرة:

ـ تعب كلّ السنة ضاع، أتمنَّى أن تتساقط العناقيد أرضًا، أن تأكلها الديدان والحشرات، ولا تمتدّ أفواههم القبيحة الشرهة إلى كرمي.

قلت لها:

ـ وأيضًا تين أبي هذه السنة، لن يتحوَّل إلى غلاوز[١].

(١) غلاوز: يشتهر الإيزيديُّون بالغلاوز، هو تين مجفَّف يوضع بخيوط ويتمّ تجهيزه إلى الشتاء، كنوع من الفاكهة.

ابتعدتُ عن ثقب الباب، واقتربتُ إلى الشبَّاك، أحاول تذكُّر كلّ ما شاهدته بالأمس، أبحث في الوجوه العالقة بمخيِّلتي، علّني أجد وجه أخي بين أحدها، صغيرًا لم يكمل السادسة بعد.

* * *

سمعت غلَّ القفل يدور، اقتربتُ من الباب لأستقبله، أعجبته لهفتي، غمرني، وأنفاسه تحرِّك شُعيرات وجهي، كعاصفة رمليَّة ملتهبة.

كأنَّ رمالها تتدافع نحو رئتيَّ، همس بأذني:

ـ اشتقت إليكِ!

ـ هل عرفتَ شيئًا عن أخي؟

طلب منِّي قراءة القصيدة. عندما أنهيتها، قلت له:

ـ ألن تخبرني ماذا عرفت؟

ارتمى فوقي، وهو يقول:

ـ إنَّه بخير، أخبرني أخي ذلك.

اقتحمت شفتاه رقبتي، وطلب منِّي أن أقول له «أحبّك».

قلت له:

ـ أريد أن أراه.

ضخّ لعابه بعروقي، وهمهم:

ـ سأفعل.. أعدك.

كحيوان يتزاوج، يُعيد طلبه:

ـ هيَّا، قُولي أحبّك.

ـ أحبّك.

* * *

في بداية علاقتنا، كنت أخجل كثيرًا حين يطلب منِّي سيروان، أن أقول له أحبّك، يقول لي أحبّكِ، فأُجيبه: «وأنا أيضًا»، أو «وأنا كذلك»، أبدّل بهاتين الكلمتين..

في إحدى الليالي التي نمضيها على الهاتف، رغم قرب بيتينا، أصرّ أن أقولها له.

ولم أقلها..

فأغلق الهاتف دون وداع ودون أيَّة كلمة.

أرسلت له رسالة:

«ما قلت أبدًا لك إنِّي أحبُّك، لكنَّك مؤكَّد، سمعتها تتدفَّق بأنفاسي، كشلَّال لا يهدأ».

بعد عدَّة أيَّام، أخذ دلدا وروناهي ليبيعهما، طلبتُ منه

إبقاءهما، إلَّا أنَّه أعلن اكتفاءه بي.

ها أنا وحيدة من جديد، تغتالني الوحدة كريشة تحزّ على رقبتي ببطء.

ترك باب غرفتي مفتوحًا، ففكُّرت بالهرب، إلَّا أنَّني سأنتظر لأرى أخي، سأهرِّبُه معي، أخطِّط بعد أن دخل أمل جديد إلى أيَّامي، سأنتشل أخي من بين أيديهم.

* * *

أصلِّي كلّ يوم، حافية أقف بوجه الشمس، أرفع يديَّ نحو السماء، أطلب مئات الطلبات من خودا.. كلّها من أجل أخي. أعيش كلّ يوم، فقط لأعرف أخباره، التي ينقلها لي أبو هاجر:

«اليوم أخبره أخي سرًّا أنَّك هنا بالرقَّة قريبة منه، اليوم طلبت من أخي أن يوصي به كلّ العناصر، لا تخافي.. تمَّ نقله إلى مقرٍّ لتعليم الدروس، وليس السلاح...».

والخبر الذي بتُّ أستمدَّ منه قوَّتي، وتحمُّلي لأبو هاجر، هو أنَّه اتَّفق مع أخيه بعد مشاحنات طويلة بأن يؤمِّن لي لقاءً مع أخي.

من بعد كلّ تطمينة، أقرأ له قصيدته اللعينة، ثم يعتليني، وهو يطلب منِّي:

ـ هاجر، قولي لي أحبُّك.

حيوانة أنا لم تروِّضها الحياة، يروِّضني هذا المسخ، يرمي لي بقطعة لحم بالقفص، وأنا أدخله لاهثة.

مضى على وجودي هنا ما يقارب الشهر..

خرج أبو هاجر بعد أذان الصباح. مضى اليوم كلّه، لم يعد.

إنَّها المرَّة الأولى التي يغيب بها طيلة النهار، هكذا.

لم أكن خائفة عليه، بل كنت أفكِّر باللقاء المحدَّد مع أخي هذا الأسبوع، وأنَّه الوحيد الذي يمكنه إتمام هذا الأمل، وتجسيده إلى واقع.

أردته أن يعود.

ما بعد منتصف الليل، سمعت خربشة بِغلِّ الباب، ركضت نحو الباب، وإذا برجل أراه للمرَّة الأولى.

خفتُ كثيرًا، أسرعت إلى غرفتي، فقال لي بصوت يكاد يخرج من حنجرته:

ـ لا تخافي، أنا أخ أبو هاجر.

عدت إلى مدخل المنزل، قلت له:

ـ ساجد؟

أومأ لي، أضفت لأخفي فرحي بلقائه:

ـ لقد خرج من الصباح، ولم يعد.

ـ أعرف ذلك.

ثم غمغم بكلمات بقيت ضمن جدران فمه، وكانت الدمعة تنفر من عينيه، وهو يقول:

ـ أبو هاجر استُشهد اليوم.

اختلطت مشاعري في تلك اللحظة: هل أسعد أم أحزن؟! ما يهمّني أن يكتمل لقائي بأخي.

إلَّا أنَّ جملة ساجد حسمت الكفَّة للفرح، حين قال لي:

ـ ستذهبين معي.

أراقبُ، من خلف زجاج النافذة، المساحات الواسعة التي تُحيط بمنزل ساجد، تنعشُ النفس، رغم أنَّ الليل يُغرق المكان كلَّه بالعتمة.

ثمَّة أضواء خفيفة مبعثرة، ربَّما هي بيوت.

يُغريني منذ صغري اكتشاف ما بداخل البيوت، خاصَّة البعيدة منها. أحاول تخيُّل شكل الحياة التي تدبُّ فيها. أتحسَّس دفء الموقدة، أرسم بخار الصحون فوق المائدة، أسمع صراخ طفل، علقت قدمه تحت السرير وهو يحاول التقاط طابته..

بيتي الآن منطفئةٌ أضواؤه، باردةٌ صحونه، مرمَّدةٌ موقدته. وأخي الصغير يأتيني صراخه، كأنَّه ينبعُ من أذنيَّ.

إنَّ أيَّة تضحية لأجل أخي لم تعد خيارًا أبدًا، إنَّها أقدسُ الفرائض!

نادى ساجد على رهام، لتتجهَّز للصلاة معه. أراها تمدُّ سجَّادة الصلاة بالاتِّجاه الصحيح، دون تردُّد، وتلفّ الغطاء بإحكام على رأسها.

قال لي ساجد:

ـ سوف نصلِّي لراحة نفس أبو هاجر.

ـ سأصلِّي معكم.

* * *

ساجد يعزل نفسه بالغرفة، جلستُ مع رهام أسألها عن حالها، فقالت لي:

ـ أُقنع نفسي أنّني بكابوس، وإن صرختُ، أو بكيت، فلن يتغيَّر أيّ شيء.

إنَّني أنتظر بهدوء أن ينتهي هذا الكابوس، سأخرج من هنا، لأحقِّق حلم أمِّي التي توفِّيت، لأنَّنا لم نستطع علاجها.

ـ ما هو حلمك؟

ـ ليس حلمي، إنَّه حلم أمي، التي نقشته على كلّ جدران البيت.

في كلّ مرَّة عندما نهُمُّ لترميم بيتنا الطينيّ، نجهِّز القوالب لنصنع الطابوقات بأيدينا، تمسك بعصا صغيرة، وتكتب بها على الطين «منزل الدكتورة رهام».

* * *

غفت رهام، لتهرب من كابوسها النهاريّ إلى أحلامها

الليليَّة. أمَّا أنا فلا أريد الهرب.

طرقتُ على باب ساجد طرقات خفيفة ناعمة، دخلتُ إليه، وجدته يمسك موبايله يتأمَّل صورة أبو هاجر.

جلست على مقربة منه، وقلت له:

ـ كان يحبُّك كثيرًا.

ـ اليوم خسرتُ أعزّ إنسان.

لم أزح نظراتي عنه، قلتُ له:

ـ أستطيع أن أشعر بك، فأنا منذ مدَّة مات أخي أيضًا. في البداية، تملَّكتني الصدمة، وعدم التقبُّل، كنت أنتظر عودته كلّ يوم. بعد فترة، أصبح الشعور أصعب، حين بدأت أشتاق إليه، وليس من فرصة أخرى تعطيني إيَّاها الحياة، بأن أراه أو أكلِّمه، أن أحضنه..

كنت أحكي. هو يسمع ودموعه تكرج على صورة أبو هاجر.

سكتنا لدقائق، ثم عندما رفع برأسه عن شاشة موبايله، وجدني أتأمَّله.

بقيت أنظر بعينيه، كلّ أنوثتي أضعها بين أحداقي.

مدَّ يده لي، فأعطيته يدي، سحبني إليه وأجلسني قربه.

أغويه بكلِّ ما أمتلك من رغبةٍ لاسترجاع أخي.

وبدأت مراسم المقصلة!

* * *

استلقى ساجد على ظهره، يعبُّ أنفاسًا متواصلة. أمسكتُ

بشعيرات صدره، ألفّها ثم أفردها، همست له:

ـ هل سأرى أخي في نهاية هذا الأسبوع؟

ـ تريدين أن آخذك إليه؟

ـ نعم، بالتأكيد.

ـ أين هو؟

جلستُ، ونظرتُ إليه مُستفهمة:

ـ أليس مع أشبال الخلافة؟

ـ لا أعلم.

ابتلعتُ سكِّينًا، قلت:

ـ أبو هاجر أخبرني بأنَّك تعطي دروسًا دينيَّة لأشبال الخلافة، وأنَّه تحدَّث إليك من أجل أخي، وأنت كنت تهتمّ به، وتوصل أخباره إلينا.

بحلق فيَّ قائلاً:

ـ أنا لست مدرِّسًا بأشبال الخلافة.

قلت له ويدي ما زالت فوق صدره:

ـ أكان يكذب عليّ أبو هاجر؟!

نتع يدي عنه.. اتَّجه نحو الحمَّام، وهو يقول بلامبالاة:

ـ ليس لديَّ أيَّة فكرة عمَّا تتحدَّثين به. إنسي أخاك.

* * *

منذ لحظات، كنت معه. تركته يعبث فيّ خرابًا كما يشاء.

من علوٍّ شاهق هويتُ، ارتطمتُ بصخور مسنَّنة. بصقتُ بداخلي، تقيَّأتُ على نفسي مئات المرَّات.

مطرُ أيلول ينهمرُ بجنون، تخطَّيتُ عتبة البيتِ بكامل عُريي، وقفت في هذه المدينة السوداء، التي كلّ ما فيها يخافُ الخطيئة، ثم يقترفها.

تجلدني السماء بمطرها، فأغتسلُ من ضعفي، وأتطهَّرُ من ذنوبي.

أبوِّلُ على نفسي، كأنَّني وُلدت الآن، بكامل عُريي، بكامل خذلاني، وخيبتي أمام ربِّي.

انكشفتُ أمامه وانكشف أمامي، أنا بكلِّ أحزاني، وهو بكلِّ لامبالاته!

* * *

يصرخ فيّ: «أمجنونة أنت، عارية بالخارج؟».

سحبني ساجد إلى الداخل، أدركت أنَّني لم أتخطَّ الدقيقة ربَّما! ولكنَّها كانت طويلة جدًّا.

* * *

لم يكن لي قدرة حتى لأن أتنفَّس، دخلت في دوَّامة لا تتوقَّف، لا تهدأ.

صداعي استقرَّ برأسي، ويدي تتنمَّل.

لو أنَّه ينفجر، ليخرجَ منه كلّ عذابي، ديدانًا تتغذَّى عليّ.. أتآكل، وأختفي!

أغيبُ بالحلم الكابوس، بالغرفة المظلمة المغلقة نفسها، أنحشرُ بين الجدران التي تضيق عليَّ، ولكنَّ الكوَّة هذه المرَّة، ما زالت تجوّف الحائط، لم تختفِ بالظلام، تهوي يدي على الحائط كمعول، كإزميل. أُوسِّع محيط الكوَّة، ليدخل إليّ نور أكثر.

لكنَّ العتمة بقيت تخنقني!

مضت هذه الليلة، وألم الصداع كان أخفّ وطأةً من باقي آلامي التي ما فتئت تسلخني.

لو أنَّ الإنسان يتطهَّر، ويتداوى بالألم!

لكان الألم فرّخ في صلوات الأيادي الممدودة إلى السماء.

ولكنَّنا، نحن البشر، لا نقبل أن نتألَّم، نريد أن تُغفر ذنوبنا، دون تكلِّف أيِّ عناء.

لأجل أن أبرِّد جمرة قلبي بخبر عن أخي، بلقاء به، رميتُ بنفسي للهلاك بالنار. هل أخطيت؟ وهل أخطأت؟

إنَّهم يقتلون الأضاحي لأجل الإلٰه، وأنا ضحَّيتُ بجسدي لأجل أخي.

وسيروان؟ هل يفكِّر مثلي؟

إن أخبرته أنَّهم اغتصبوني سوف يغمرني ليخفِّف عنِّي، ولكنْ إن أخبرته أنَّي أخرست مقاومتي لأجل أخي، أنَّي أغويته كالعاهرات، هل سيغفر لي؟

أتصوَّر سيروان يحملُ معولاً، يهوي به على يدي، رجلي،

ظهري، رأسي، كجذع شجرة يابسة، متحجِّرة، ينغل بها السوس والدود، يقطِّعني لآلاف القطع، وينتزع قلبي برفق، يلفُّه بشاله الذي أحبّ، ويغادرني!

إلى هذه الليلة، كنت مؤمنة أنَّ بكارتي التي خسرتها، لم تفقدني بكارتي التي تكمَّشت بها بعقلي، رغم كلّ الاغتصابات.

أعترف أمام خودا، الذي لم يسمع كلّ صلواتي، أنَّني اليوم أصبحت زانية!

ـ ٦ ـ

أتى ساجد في الصباح، قال لي:

ـ لقد دنَّستِ حزني على أخي ليلة مقتله. هيَّا، سترحلين من هنا.

بعد ما يقارب النصف ساعة، توقَّف ساجد. عرفت أنَّنا وصلنا، دخلنا منزلاً كبيرًا، تحيطه الأشجار من كلّ الجهات. مشينا في الحديقة الممتلئة بالورود الملوَّنة..

أرتدي خمارًا أسود، يعزل عنِّي رؤية الحياة.

أنا امرأة تحبُّ الألوان، فالألوان حياة، لا أريد أن ألبس ثيابكم السوداء.

أتمتم وحدي كمجنونة، كم هو جميل الجنون في مثل هذه الأوقات، وبين الورود والأشجار!

الممرّ الذي أمشي به رغم جماله، وروائح التراب التي

تعبق، وتطفو بأنفاسي، بتُّ أُدرك أنَّه يوصلني إلى جحيم آخر، يخلو من الحطب، وينتظرني لأوقد ناره المقدَّسة بلحمي!

حركة كثيرة في المدخل، ونساء يرتدين عباءات سوداء، منقَّبات، وعلى أكتافهنَّ يسندن بواريد. لمعت برأسي صورة أمّ الخنساء، ومساعدتيها.

تكلَّم ساجد مع إحداهنَّ، فرافقتنا إلى غرفة في الطابق الأوَّل، هي أشبه بالمكتب. يجلس خلف الطاولة رجل أشقر طويل، وعيناه زرقاوان.

اهتمّ بساجد أجلسه، وبَدَءا يتحدَّثان. لا يتكلَّم العربيَّة، يتحدَّث بالإنكليزيَّة. لم أكن أفهم ما يقولانه أبدًا..

بقيت واقفة قرب الباب، رمى إليَّ بضع نظرات، ثم نادى بصوت عالٍ على إحداهنَّ، تُدعى عليا.

أنزلتني إلى الطابق السفلي، وأدخلتني إلى غرفة فيها مجموعة من الفتيات الإيزيديَّات.

من بعد أن خرجتْ، وأقفلت الباب، ركضت نحوي دلدا، غمرتني، وأجلستني بينهنَّ. سألتها عن روناهي، أجابتني باندفاع:

ـ هنا نباع، أو نُبدل.

ثم رفعت رأسها إلى الأعلى، وأضافت:

ـ صاحب التجارة أبو العيون زرقاء، تناديه المجاهدات بـ «الأزرق».

هززت لها رأسي أنَّني فهمت، لأنَّي رأيته.

ثم أضافت:

ـ روناهي بيعت من مدَّة، أخذها رجل عمره فوق الستِّين.

ـ ألم تعلم شيئًا عن أولادها؟

ـ بلى، تسنَّى لها مهاتفة أحد إخوتها، وأخبرها أنَّ أولادها تمكَّنوا من الهرب إلى الجبل.

أربع من الفتيات هنَّ من قرية كوجو[1]، شهدن على مجازر أهلهم كلّهم، ثم اقتدن إلى المدن والمقرَّات، ما زالت وجوههنَّ تصوِّر ما شاهدن، وما عانين..

لكلٍّ واحدة هنا تجربة لا تقلُّ قساوة عن الأخرى، ومهما حاولنا أن نتحادث، ونضفي جوًّا جديدًا إلى دواخلنا، تنقضُّ علينا المآسي التي عايشناها، ولم تسترح بعد.

تخبرني دلدا عن القصص التي سمعتها.. كم من فتاة انتحرت! وكيف يعذِّبون الأطفال المتواجدين مع أمَّهاتهم السبايا.

ثم تُشير إلى امرأة نائمة لم تستيقظ منذ دخلتُ، قالت دلدا بصوت أشبه بإفشاء سرٍّ عظيم:

ـ هذه نارين، عندما اختطفوها، كان طفلها ذو الخمسة أشهر معها، ولأنَّها عاندت أن تتزوَّج بأحد المقاتلين، أخذوا منها الطفل ليعاقبوها. انتفخت أصابعها، وازرقَّت، وهي تخبّط على الباب لكي يردُّوه إليها، إلَّا أنَّهم حين أحضروه كان ميِّتًا..

---

(١) كوجو: قرية إيزيديَّة تمَّت محاصرتها من قِبَل تنظيم الدولة الإسلاميَّة في ٣ آب ٢٠١٤، ثم في ١٥ آب ٢٠١٤ ارتكبوا فيها أبشع المجازر بحقِّ أهلها.

تصمت دلدا طويلاً، تشرد، ثم فجأة تتمتم:

ـ يا ليتني أستطيع أن أجعله لا يكبر موقَّتًا، هكذا فقط أحميه.

أنقِّل عينيَّ المذهولتين بين دلدا وبين نارين الغائبة عن كلّ الوجود.

تكمل دلدا، والخوف يجعلها أقرب إلى المصاب بمرض عقليّ، تتكلَّم بسرعة، وتُعيد الفكرة نفسها مرارًا، وهي دون أن تشعر تسند بطنها بيدها اليسرى. بداخلها جنين يكبر، وبداخلي أرواح ماتت، وأرواح ما زالت تتنفَّس في مكان ما..

دخلت عليا تحمل بارودتها على كتفها، ومعها رجل ملتح، عمره بحدود الأربعين. أمرتنا بأن نقف، وبدأت تشير إلينا، كأنَّها تبيعه آلات اصطناعيَّة. تمسك دفترًا، تقرأ عنه مواصفات كلّ واحدة.

اختار «سيما»، التي تبلغ من العمر تسع سنوات.

قالت لها فاطمة، مساعدة عليا، بنبرة كأنَّها معلِّمة في المدرسة:

ـ هيَّا تعالي.

كبركان، كإعصار، كانفجار كونيّ، ثارت سيما..

وأخذت تصرخ، كأنَّ صوتها يخرج من مئات الحناجر:

ـ لا، لن أذهب.. لا.

تكاثرت النسوة المنقَّبات.. أوَّل شيء فعلنه أحاطوا بنا، كي

لا نقوم بأيٍّ فعل يصعِّد الموقف.

ثم تقدَّمت عليا باتِّجاه سيما، وهي تؤنِّبها بصوت كالبوق حادّ:

ـ سأعلِّمك درسًا لن تنسيه يا عاهرة.

من دون وعي، كأنَّنا نشاهد مسرحيَّة أو مشهدًا من فيلم خياليّ، خبطت سيما رأسها بالحائط مرَّات متتالية.

وكلّ مرَّة، كنت أقول الآن سوف تسقط، إلَّا أنَّ الخبطات تتابعت بقوَّة..

إلى أن فقدت الوعي، وهوت أرضًا.

جلستُ على الفراش، وعيناي ما زالتا تُعيد بطولة سيما.

يا لها من بطلة!

استطاعت أن تفعل ما عجزتُ أنا، ابنة الثالثة والعشرين على فعله.

الشجاعة ليست مرتبطة بالعمر وحده، إنَّما بأشياء ذات أهمِّيَّة أكثر من تراكم السنين. بشيء يتوالد هنا، بالقلوب، التي لم يتجرَّأ الخوف على معاشرتها.

تصوَّرت لو أنَّ سيما عندما ستكبر ستحبُّ، مثلي، شابًّا من غير طبقتها! هل ستتردَّد بالهروب معه؟

* * *

كسوق العملات، لا تهدأ هذه الغرفة..

تكثَّفت دروس الدين على يد الشيخة الفاضلة منى، تأتي إلينا

كلّ يوم، وتأتي معها أيضًا مجموعة من الفتيات الأجنبيَّات الشقراوات.

رأيت خمس فتيات منهنَّ، لا يتحدَّثن العربيَّة أبدًا، كانت معهنَّ مترجمة دائمًا من التنظيم.

بين صلاة، وبين آيات يجب أن نحفظها، وتعاليم علينا أن لا ننساها، كنت أراهنَّ متحمِّسات لأن يتعلَّمن ويلفظن الآيات بالشكل الصحيح.

أتساءل ما هو السرّ الذي أتى بهنَّ إلى هنا؟

* * *

مضى أسبوع كامل لي هنا، تبدَّدت غيوم كثيفة، كانت قد أثقلت تفكيري، منذ ذلك اليوم الأسود إلى ليلتي المذلَّة مع ساجد، مع نفسي.

تغيَّرت أشياء كثيرة بداخلي.. لأوَّل مرَّة، بتُّ أستطيع السيطرة، ولو قليلاً، على ذاكرتي التي ما هدأت أبدًا، عقلي المتخبِّط بجمجمتي، وأحاسيسي القابلة للانفجار في أيَّة لحظة.

بدأت أعتاد هذه المرحلة من حياتي.

ألملم قوَّتي وأجمعها، لتصبح حاجزًا فولاذيًا يحميني من الانجراف إلى أودية الضعف، والغباء.

أشعلتُ تفكيري بكلِّ الذكريات الجميلة، فإن تدفَّأ تفكيري، سينتشر الدفء بكلِّ خلاياي المجمَّدة، من الخوف والمجهول.

سيروان حاضر بدمي، الذي يلُفّ بكلِّ عروقي طيلة يومي، ولا يهدأ.

إن هدأ، هل سأبقى على قيد الحياة؟

أتذكَّر..

كنَّا نختبئ بملجأنا المهجور، أمسكَ يدي، ثم أمسك بيدي الأخرى، تحسَّس كلّ إصبع من أصابعي، وأنا أميل برأسي إلى كتفه.

في كثير من المرَّات، وهذه إحداها، كان الصمت مايسترو لقائنا.

الموسيقى تخرج من موبايل سيروان كالماء المتبخِّر.

فجأة، سمعنا صوت راعٍ، وثغاء قطيع من النعاج يقترب.

نهض على مهل، واقترب من الشبَّاك المخلوعة درفاته. نظر من شقٍّ بين خشبتين، ثم اقترب منِّي ضاحكًا:

ـ ثمَّة راعٍ ونعجاته يحاصروننا من الجهات الأربع.

اتَّسع بؤبؤ حدقتيَّ، حتى خلته سينملع، وتمتمت له بفزع:

ـ ماذا لو دخل إلى هنا؟ سننفضح.

ـ تعالي سنجلس في الغرفة الداخليَّة، وإن أنا متأكِّد من أنَّه لن يدخل، لماذا يدخل؟

ـ ربَّما ليرتاح، أو لأن يقضي حاجته، لا أدري.

ـ لن يترك قطيعه، وإن أراد التبوُّل، سيفعلها قرب إحدى الأشجار.

انسحبنا كالجنود الخونة إلى الغرفة الداخليَّة، ربَّما كانت للمؤونة، صغيرة جدًّا، لا يمكن لإنسان بطول سيروان أن يمدَّ

قدميه بها، بقي مقرفصًا ما يقارب الساعتين، وأنا أجلس، وأشدُّ قدميَّ نحوي. كنَّا متقابلين، كلٌّ واحد منَّا على حائط، لعدم كفاية المساحة بالجلوس قرب بعض.

بعد كلّ ثغاء نسمعه، نضحك: كيف لهذه الكائنات الودودة، أن ترعبنا؟

وأكثر ما أضحكنا، أنَّ الراعي يُطلق على كلّ نعجة اسمًا، وصفة، يكلِّمهنَّ كأنَّهنَّ يتفاعلن معه، ولا يلبث أن يقول لنعجة:

ـ آه.. أفهم عليك يا بيضاء، يا حلوة، من نظرتك.

ثم يقول لنعجة أخرى اسمها كريمة:

ـ إرعي، لا يوجد ألذّ من حليبك.

ثم بدأ بالغناء، يستبدل الكلمات الأصليَّة التي نسيها، بأخرى من تأليفه، تماشيًا مع القافية، فيصبح المعنى هزليًّا.

ضحكنا في تلك المرَّة، ما يعادل كلّ الضحك بعمرنا.

من بعد أن خلا المكان، وابتعد الثغاء، والهمهمات الفلسفيَّة للراعي، استفقد سيروان من كوَّة الغرفة، ومد يده لي، قائلاً:

ـ هيَّا يا نعجتي، لقد ذهب القطيع.

غمرته، وأنا أتنهَّد أنَّنا نجونا، فأبعدني عنه بقوَّة، صارخًا بي:

ـ لكنَّ الثعلب بقي هنا ليأكلك.

* * *

كنت قبل ٣ آب، ذلك اليوم المشؤوم، أغطِّي النعجة

بداخلي، حتى لا تكشف لي عن ضعفي، لكنَّهم مزَّقوا الغطاء عن نعجتي، ورأيتها بوضوح، كما لم أرها من قبل، عارية ترتجف وهنًا.

أن أُنبتَ أنيابًا للنعجة المتمرِّغة، وجعًا بداخلي، تحدٍّ شاقّ، لكنَّه جدّ ضروريٌّ لبقائي.

* * *

في الصباح، دخلت عليا، وندهت لي:

ـ يوفا، ستّ يوفا تفضَّلي.

انتظرت أمام مكتب أبو العيون الزرقاء مدَّة عشر دقائق، وعليا تمسك بي من ذراعي بقسوة، وتشدُّ عليها بين حين وحين.

نادى الأزرق على عليا، فأدخلتني.

في الغرفة ثلاث فتيات غيري، يقفن خلف الشاري الذي يجلس على كرسيٍّ، حين وقفت أمامه، تأمَّلني ثم مدَّ يده إلى جيبه، ودفع مبلغًا من المال.

همسَت لي عليا، كأنَّها تُترجم لي ما يحدث:

ـ لقد نلتِ إعجاب التاجر، افرحي يا قردة.

ثم لوت ذراعي، وهي تنظر إلى المال الذي يُحسب بين الأصابع الزرقاء، وقالت بنبرة أرادتها متعجرفة:

ـ ليس بالكثير سعرك، فقط خمسمائة دولار.

أمام المكتب، تهامست عليا والتاجر، بطريقة سريعة شبه سرِّيَّة، وعندما شدّنا ودفشنا أمامه لكي نمشي، عاد واقترب إليها قائلاً:

ـ لا تحرمينا من شوفتك يا ستّ عليا، زورينا، الموصل اشتاقت إليك.

* * *

أن أُباع، ويُدفع ثمني أمامي، أو أُبدَّل بين الرجال دون أن يلتفتوا إلى موافقتي أو عدمها، أن تمتدّ الأيادي إليَّ لتتفحَّصني، ثم الأيادي نفسها تأخذني، وتغتصبني، بات شيئًا شبه عادي.

إلَّا أنَّ ما كان يشغلني بهذه اللحظات هو أخي، ها أنا سأرحل من هذه المدينة ولن آخذه معي، إلَّا أنَّني حاولت تحقيق هذا المستحيل، وأسلحتي لم تنفعني، بل رمتني برصاصات الذلّ.

عندما خرجنا من باب القيلَّا، توجَّهنا إلى سيَّارة بيضاء اللون، لا تشبه السيَّارات التي ركبت بها داخل هذه المدينة.

امتنعت عن مواصلة السير، فنظر إليَّ التاجر متسائلاً، طلبتُ منه بعبارات سريعة متواصلة، أن يساعدني، لأطمئنَّ عن أخي، قبل أن أذهب إلى أيِّ مكان آخر..

وضعني بالمقعد الخلفي، قربي فتاتان، وواحدة بالمقعد الأمامي، بعد أن استقرَّ خلف المقود جلّس المرآة أمامه، وتطلَّع إليَّ قائلاً بلهجة حياديَّة يشوبها عدم الاهتمام:

ـ لا يمكنني أن أتدخَّل بأيِّ شيء، أنا تاجر، فلا تنخري رأسي كلّ الطريق.

* * *

في إحدى القبائل البعيدة الساكنة في عمق الغابات الإفريقيَّة، إن مات قريب لهم، فإنَّهم يقطعون عُقْلة من أصابعهم حزنًا عليه.

كم من عُقْلة يجب أن أقطع من يديَّ؟ وكم من عقلة ستقطع نفسي حزنًا على نفسي؟

ها أنا أغادر هذه المدينة السوداء، تاركة ورائي قلبًا صغيرًا، يحمله أخي بين ضلوعه.

في كثير من الأحيان، نترك مدنًا، ونبتعد عنها، إلَّا أنَّها تبقى تسكن فينا، تلاحقنا، كأنَّها شجرة غرست جذورها بذاكرتنا، وامتدَّت أغصانها إلى كلّ أيَّامنا..

كنت قد عاهدت نفسي أنِّي حين سأبتعد عن هذه المدينة، سوف أرميها ورائي ككيس قمامة عند أوَّل مزبلة أصادفها.

ولكنِّي سأبقى أحمل هذا الكيس، على ظهر تفكيري، وأخي يقفز منه في كلّ فرصة، فيدمِّرني.

إنَّها الطريق نفسها، التي سلكتها يوم مجيئي بذلك الكاميون.

والآن أسلكها بالاتِّجاه المعاكس، محمَّلة بندوب تتعمَّق مع كلِّ متر أمشيه.

ـ ٧ ـ

الموصل تبدو لي كأنَّها الأخت التوأم للرقَّة!

الأعلام السوداء تكاثرت منذ رحيلي كثيرًا، والخوف له رائحة تنبعث من كلّ الأزقَّة، من الجدران، من إسفلت الشارع، من الوجوه. .

غبار الخوف يتصاعد، ويمدِّد نفسه بالهواء، كقطعة من القماش السميك تحجب العيون عن رؤية وجه ربِّهم. .

* * *

أنزلني إلى منزل، في طابق رابع، يطلُّ على شارع عامّ. رغم الحركة النشطة للسيَّارات والمارَّة، تبدو الحياة شبه معدومة، أو متخفِّية وراء العيون المضطهدة المطلَّة من وراء الخمار.

الناس هنا محكوم عليهم، إمَّا أن يتركوا بيوتهم، ويرحلوا ويتشرَّدوا، أو أن يموتوا بتلك الطريقة اللعينة، الموت البطيء.

بضعة أدراج، وكنت قد أصبحت داخل الجحيم الجديد، ولكنَّني مصمِّمة أن لا أحترق هذه المرَّة.

جلس التاجر، وأوقفني قربه، وعندما حضر الأمير سيف، أمرني التاجر أن أرفع النقاب عن وجهي، ليتفقَّدني الأمير، قائلاً له:

ـ إن لم تعجبك يا أمير لديَّ أخريات.

ـ كم سعرها؟

ـ ١٥٠٠ $.

ساد عدم الرضا على وجه الأمير، ليستدرك الموقف، سألني التاجر:

ـ ألم أشترِكِ بـ ١٢٠٠ $؟!

يُشهدني على سعري!

جلس الأمير سيف على الكنبة، في الخمسين من عمره. أمرني أن أخلع العباءة، وأستدير، ثم تقدَّم إليَّ متحسِّسًا مؤخّرتي. ابتعدت عنه، ثم رفع إصبعه مهدِّدًا، وأكمل:

ـ إيَّاكِ أن تتمنَّعي.

* * *

دخلت ماريَّا، زوجته، اصطحبتني إلى الداخل، من بعد أن استأذنت الأمير.

أدخلتني إلى غرفة صغيرة في آخر الممرّ، فيها سرير مفرد، خزانة وطاولة، وضعت لي في الخزانة ملابس كثيرة. قلت لها:

ـ هل كنت تعلمين بقدومي؟

ـ لقد أخبرني سيف بذلك.

ـ ألا يزعجك وجودي هنا؟

ـ لديه غيري وغيرك ثلاث زوجات.

ثم ربّتت على كتفي، وقالت بأسى، شعرتُ به عميقًا من داخلها:

ـ إنَّنا متشابهتان.

***

بقيتُ طيلة الليل أنتظرُأن يأتي إليَّ. قلتُ لنفسي، لن أسمح لأحد بلمسي ثانية، إلَّا إذا كنت جثَّة!

في ساعات الصباح الأولى، استيقظت، فتحتُ الباب بهدوء، توجَّهت إلى الحمَّام، ومن بعدها عدت إلى غرفتي الجديدة. انتظرت أن تشرق الشمس، وما إن انبثق الشعاع الأوَّل، حتى توجَّهت نحوه، حافية القدمين.

لكنِّي لم أصلِّ، لم أتسامح بعد مع السماء..

أُعيد تذكُّر الله الذي أخبرتني أمِّي عنه بصغري، كيف أنَّ رحمته كبيرة واسعة. أتساءل لماذا رغم كلّ صلواتي لم تطالني رحمته؟

صوت المآذن يعلو، شعرت كأنَّني بمنزل أبو محمَّد، وقلت: هل هذا أيضًا يفضِّل أن يصلِّي، ثم يضعني تحت المقصلة؟

التقطتُّ طرْقًا خفيفًا على الباب. دخلت ماريًا، وقفت عند أوَّل السرير، قلت لها:

ـ اعتقدته هو.

ـ لا تخافي. سيف ليس هنا، رحل قبل طلوع الضوء،

يشرف على المعارك بكوباني. طلب منِّي متابعة تعاليم الدين معك، إلَّا أنَّني لن أفعل ذلك.

تنهَّدتُ، وأنا أقول لها:

ـ كيف لي أن أتخلَّص منه، لم أعد أقوى أن يلمسني أحد.

ـ سيف، لن يقربك إن كنت مريضة.

ـ تقصدين دورتي الشهريَّة؟

ـ نعم، إنَّه يقرف كثيرًا.

ـ لكنَّ الذين امتلكوني قبله لم تكن تفرق معهم هذه الأيَّام.

ـ سيف تفرق معه.

ثم قالت لي، بصوت يريد أن يكسر أيَّ شيء ليخرج:

ـ حتى لو أنَّك إيزيديَّة، وأنا مسيحيَّة، نحن متشابهتان.

قاطعتها، وأنا أقول لها:

ـ ما هو الشبه؟

غيّرت جلستها، وألقت ظهرها إلى الحائط، وقالت:

ـ انقلبت الموصل منذ دخول التنظيم، كثير من الناس هربوا، ومن لم يستطع الهروب بقي في منزله. وأعتقد بأنَّه إذا لم يخالف قواعدهم سينجو. إلَّا أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة مع هؤلاء الكائنات.

يغصُّ صوتها، تبتلع بريقها، وتكمل:

ـ عشنا أسوأ أيَّام حياتنا. لقد خيَّرونا بين أن ندفع لهم جزية، أو أن ندخل الإسلام، وهناك عائلات خيَّروها فقط بين

الإسلام أو الرحيل، وقاموا بتجاوزات لم يستطع أحد الوقوف بوجّههم. . تخيَّلي أنَّهم كتبوا على كلّ بيوتنا حرف «ن» كعلامة.

تكمل:

ـ الأكثريَّة فضَّلوا الرحيل على الذلِّ، وتغيير الدين، تحت وطأة السيف، ونحن كنَّا ممَّن بقوا. لم أستطع وعائلتي الخروج بهذه السرعة، ولكنْ في ليلة لا تعرف وجه القمر، هجموا على أكثر من بيت، حرقوا، ونهبوا، ومن طلع بوجههم، اعتقلوه، كان أبي من بين المعتقلين. .

تداري دموعًا تتفجَّر من مقلتيها، وهي تضيف:

ـ وأبي رجل كبير في السنِّ، لا يحتمل أيَّ نوع من التعذيب. بعد أيَّام طويلة، كنت أبحث وأمِّي عنه في المقرَّات، ولا جواب. طلبنا من العائلات التابعة لهم مساعدتنا، لا أحد مدَّ يده لنا.

ثم بعد عشرين يومًا من القلق، والخوف، والقهر، أتى إلى بيتنا أمير أفغانيّ، سيف، لديه الكثير من الجنود خلفه، لم أكن قد رأيته من قبل، قال لي:

«إمَّا أن تدخلي الإسلام، وتتزوَّجي بي الليلة، أو أنَّك ستجدين جثَّة أبيك أمام عتبة الدار».

سألتني بطريقة بديهيَّة، لكنَّها كشفت عورة انلطخت بوجداني:

ـ لو كنتِ مكاني ماذا ستفعلين؟

* * *

بعد مرور عدَّة أيَّام، لم يأت سيف إلى المنزل. عاد عند

المساء، طلب منِّي تحضير العشاء له. من بعد أن أنهى طعامه، أمرني أن أسبقه إلى الغرفة.

أخذت سكِّينًا من المطبخ، وصمَّمتُ أن أتخلَّص منه.

عندما دخل إليّ، سألني:

ـ هل أصبحتِ تعرفين أن تصلِّي لوحدك؟ أن تقرأي القرآن؟ ماذا تعلَّمتِ خلال كلّ هذه المدَّة؟

ـ تعلَّمت الصلاة، وبعضًا من التعاليم.

اقترب منِّي، ووضع يده على شعري، وأخذ يملِّس عليه. وضعت يدي على خدِّه، ونظرت بعينيه كأفعى، قلت له:

ـ أعذرني، لكنَّني لا أستطيع أن أكون معك اليوم.

ردَّ بسخرية:

ـ لماذا؟ لديك موعد مع آخر؟

ـ لأنَّني مريضة.

ـ أراكِ سليمة، ممَّ تشكين؟

ـ أنا أنزف..

رماني على السرير، وكشف بنطالي، فوجد دمًا يملأ سروالي.

علت وجهه تعابير القرف، غادر الغرفة، وهو يقول لي:

ـ عندما تتطهَّرين، سآتي إليك.

ما هذه الفرحة التي أشعر بها! ما هذا الإنجاز الذي أعاد إحياء خلاياي الميِّتة!

قبّلت إصبعي المجروح، كالمنتصر الذي استعمل سلاح عدوِّه، وغلبه به.

لو أُجبرت على اقتطاع كلّ لحمي، ليس فقط إصبعي، لن أتقاعس عن ذلك.

إلَّا أنّ ما هدّأ رفرفة نجاحي، أنَّ هذه الحيلة لا يمكنها أن تدوم إلَّا بضعة أيَّام، وعليّ أن أجد مخرجًا آخر.

قلت لماريَّا أريد أن أمتحن شجاعتها:

ـ هل تفكِّرين بالهرب من سيف؟

ـ أتمنَّى ذلك.

ثم تتغيَّر نبرتها المتمنِّية، وتتحوَّل إلى يأس:

ـ ولكنْ إن هربت، فأوَّل شيء يفعله هو قتل أهلي.

قلت لها بترجٍّ:

ـ أيمكنك مساعدتي بشيء؟

بحلقت فيّ، وقالت:

ـ الهرب؟ إيَّاك.. سوف يقتلونكِ.

تأكَّدت بتلك اللحظة أنَّ ماريَّا لا يمكنها أن تساعدني أو تشاركني الهرب، قلت لها وأنا أضحك:

ـ لا، أبدًا ليس بالهرب، أريد أن أتَّصل بحبيبي، فقط لأطمئنَّ عليه.

ـ سأحاول أخذ موبايل سيف، فهو يسمح لي بأن أكلِّم أهلي مرَّة واحدة في اليوم.

ـ وإذا غاب أيَّامًا . . لا تهاتفينهم ولا ترينْهم؟

ـ لا أهاتفهم إلَّا بوجوده، ولا أزورهم إلَّا بوجوده أيضًا، يخاف أن يتَّفقوا معي، ونهرب.

* * *

في الليل، بعد أن نام سيف، أحضرت ماريًّا الموبايل، ووقفت على باب الغرفة، تراقب وتنتظرني لأنهي.

أُمسك بيدي إختراعًا يمكنه إيصالي بسيروان، أكاد لا أصدِّق.

أحفظ رقمه، كما حفظت أحرف اسمي في صغري.

أنتظر، وقلبي كجرس معطَّل لا يتوقَّف عن الضجيج، أسمع دقَّاته أكثر ممَّا أسمع صوت الهاتف.

يا لحظِّي التعيس، إنَّه مغلق، حاولت مرَّات عديدة، إلَّا أنَّه مغلق.

تمدَّدت على السرير، والأفكار كالأمطار برأسي، لا تتوقَّف . .

لماذا لا يجاوب؟ لماذا هاتفه مغلق؟

هل مات سيروان أيضًا؟

كان هذا السؤال يخرج من كلّ خليَّة منِّي، يتحوَّل لسرطان، أفقد قدرتي على التركيز، التفكير، المقاومة، التنفُّس . .

أفقد قدرتي على الحياة . .

نهضتُ من السرير، وأخذت أدور في الغرفة، أطرد الأفكار، كأشباح تتملَّكني.

لم أتوقَّف عن المشي ساعات. لو أنَّني أمشي الآن خارجًا، كنت حتمًا سأصل إلى سنجار، إلى قريتي إلى سيروان.

أقول سيروان، كأنَّ شيئًا قفز، وخبط في أعماق صدري.. أشعر به يتنفَّس هنا بداخلي.

قبل ٣ آب، كنت إنسانًا آخر، كنتُ حرَّةً رغم القيود، ومقيَّدة رغم الحرِّيَّة.

عشقتُ سيروان رغمًا عن كلّ العادات، وهذه كانت قيودي المحرَّرة.

ولكنِّي لم أتجرَّأ أن أهرب معه، وكانت هذه حرِّيَّتي المقيَّدة.

يا ليتني هربت معك!

فأقصى حرِّيَّتي أن أحلِّق في فضاء تفكيرك وحدي، هل تفكِّر بي، سيروان؟

يتسرَّب أحيانًا ضوء الشمس، من بين المآسي التي تنمو متسارعة، كالعرائش على جدران أيَّامنا.

أخبرتني ماريًّا بلهفة عن امرأة إيزيديَّة، تعمل في منزل أحد الأمراء التي زارته مع سيف اليوم، قالت لي:

ـ تهيَّأ لي أنَّها ربَّما تكون أمَّك، ولذلك سألتها عن اسمها.

قاطعتها باستعجال قاتل:

ـ روشنا؟

تقلَّصت ملامحها، ورفعت بحاجبيها إلى أعلى، وقالت:

ـ التي رأيتها اسمها جنار.

ثم أضافت:

ـ ولكن، يمكنني أن أسألها في الزيارة الأخرى عن أمَّك، ربَّما تعرف عنها شيئًا!

هززتُ لها برأسي، مع انفراج أساريري المتشنِّجة، وقلت لها بنبرة تقتلع عرائش اليأس حولي:

ـ سوف أرسم لك وجهها، وهكذا سيسهل على جنار التعرُّف إليها.

صمتُّ لحظة، ثم أضفتُ كأنَّني أكلِّم نفسي بصوت مرتفع:

ـ لأنَّها ربَّما تكون قد رأتها دون أن تكلِّمها.

أعادت ماريًّا نظراتها البعيدة الشاردة، وسألتني:

ـ ماذا يعني اسم روشنا؟

ـ إنَّه ضوء الشمس.

* * *

وجه أمِّي كقرص الشمس، كقطعة من ذهب، يلمعُ كلَّما تقدَّمت بالعمر.. قلت لها مرارًا، اجلسي لأرسمك. كانت تتمنَّع، وتطلب بحزن:

ـ ارسمي لي وجه أخيك، فالصور لا تكفيني بعد موته.

تتوقَّف، تشهق نفسًا، تمسح بطرف كمِّها دمعة، وتردف:

ـ الصور التي نتصوَّرها، لا تعبِّر إلَّا عن وجهٍ واحد من وجوهنا، هو الفرح المصطنع. أغلب الأحيان، أنا أريد أن يُحفظ وجهه في كلّ حالاته.

تمسكُ يدي، تشدّ على راحتي، وتضيف:

ـ ارسميه عندما كان ينظر إليّ تلك النظرة، الغاضبة الرافضة، حين كنت أمنعه عن شيء.

ثم تضحك، وتنظر أمامها كأنَّها تُعيد تمثيل الحدث، وتشير بيدها قائلة:

ـ هنا، هنا، كان ينحر، وتلك النظرة التي أحبّ، تقفز من عينه نحوي، أكابر أن لا أشعره بحبِّي لنظراته الغاضبة.

* * *

ها أنا اليوم أرسمكِ يا أمِّي، دون حاجتي لأن تجلسي أمامي، أرسمك صورة، علَّك تعودين واقعًا.

لكنْ أتخيَّلك تطلبين منِّي رسم وجه أبي، وجه أخي شفان، ووجه خالتي كوري.

لقد أَكثرت الوجوه التي نُحبّ غيابًا!

مضى يومان على دخول سيف إليّ، وبدأتُ أخاف أن يعود في أيَّة لحظة. كنت أتمنَّى بقاءه مع ماريًّا، رغم أنَّي أعلم أنَّها لا تطيقه.

أنهيت رسم وجه أمِّي، ناديت عليها، وأعطيتها الرسمة من باب غرفتي بسرِّيَّة.

ولأنِّي بتُّ أصدِّق إحساسي أكثر ممَّا مضى، جرحت إصبعي الآخر، وعصرت الدم فوق سروالي، تحسُّبًا لأيَّة شهوة هوجاء، قد تستيقظ في سيف.

ذهب الليل كلُّه، وخوفي لم يذهب، كنت أنتظر أن يفتح الباب في أيِّ وقت.

ومع أذان الفجر، حاوطني الحذر، حتى بتُّ أشعر به كالمارد الجاثي في قفص صدري.

جرحت إصبعي ثانية، وأسلت منه الكثير من الدماء.

كان الأذان يرتفع بالمآذن والدم يهوي من إصبعي.

هم يصلُّون حتى يحجبوا عنهم النار، وأنا أُنزِف إصبعي حتى أحجب نارهم عنِّي.

دخل سيف إليّ، جلس على حافَّة السرير، ورفع الغطاء عن رأسي، بقيت مقفلة العينين، يمرِّر أصابعه على وجهي، ثم أنزل سبَّابته على رقبتي، قال لي:

ـ هيَّا قومي، توضَّأي لنصلِّي.

إنَّها الصلاة التي تسبق المقصلة، يردِّد عقلي.

قلت له بنعومة:

ـ لا يمكنني، أنا ما زلت أنزف.

بدأ يتحسَّسني أكثر، وأنا أتراجع إلى الحائط، كدت أفقد أعصابي، كدت أصرخ، إلَّا أنَّني أبعدته عنِّي بهدوء، وقلت له:

ـ أريد أن أكون معك، إنَّما ليس بوضعي هذا، فأرجوك.

انسحب من قربي، وهو يردِّد أستغفر الله.. قال:

ـ متى تتطهَّرين؟

كمن أخذ نَفَسًا بعد اختناق، قلت له:

ـ ربَّما ثلاثة أيَّام...

وقلت لنفسي، وأنا أكبس على جرح إصبعي، يجب إمَّا أن أهرب، أو أموت بعد ثلاثة أيَّام..

* * *

أصرّت ماريًا على سيف أن يأخذها إلى منزل صديقه الأمير، بحجَّة أنَّها انسجمت مع زوجته، وتريد الخروج قليلاً من المنزل.

أنتظرها كأنّني في قِدْر ماء يغلي.

عندما عادت، سحبتني من يدي إلى الغرفة، وقالت لي:

ـ إنَّ جنار لم تتعرَّف على صورة أمِّك، أو هكذا أوحت لي، ربَّما لأنَّها لا تثق بي..

ـ لم تقل أيّ شيء أبدًا!

ـ اسمعي، في المرَّة القادمة، سوف أصطحبك معي، وأنت سوف تسألينها، لن تخاف منك.

ـ أيسمح لي سيف بالذهاب؟

ـ سوف أطلب منه. لا تقلقي.

ـ فلنذهب غدًا.

ـ لا يمكننا الذهاب قبل أسبوع على الأقلِّ، لن يرضى سيف بكثرة الزيارات، وأنا لا أريده أن يشكّ بأيِّ شيء.

* * *

كطبقة من الزيت فوق الماء، طفت طبقة من الخيبة فوق قلبي.

القمر في أوَّل تشرين يتخفَّى بين الغيوم، لكنَّه لا يختفي.

أتطلَّع من الشبَّاك نحو الأفق البعيد.

في سمائي، تكاثرت النجوم يومًا، والآن ها هي تضجّ بالغيوم.

إلَّا أنَّني أحبُّ سمائي، فهي تجعلني أتطلَّع إلى أعلى دائمًا.

عدت أدور في أرجاء الغرفة، أصارع الأحداث التي توالت في ذهني، منذ ذلك اليوم المشؤوم..

خرجت من الغرفة، أمشي على رؤوس أصابعي، وجدت ماريًّا في المطبخ، طلبت منها أن تأتي لي بالموبايل، أريد محاولة الاتِّصال بسيروان.

إلَّا أنَّ سيف خرج بعد ذلك بقليل، آخذًا معه الوسيلة التي قد تُعيد إليّ بعض حياة.

وما بعد منتصف الليل، علا صوت هدير الطائرات في السماء، صوتها أشبه ما يكون بأبواق تصرخ من أمكنة مخيفة.

صاحت ماريًّا بتوتر، وهي تفتح الباب عليّ بسرعة:

ـ البسي ثيابك، سنغادر من هنا.

سألتها باستغراب:

ـ ماذا يحدث؟

ـ إنَّها طائرات التحالف الدولي أو الطائرات العراقيَّة، لا أعلم، أسرعي.

سألتها بغباء:

ـ يقصفون داعش؟

* * *

رغم أنَّني أتمنَّى رقود هذا التنظيم الإرهابي تحت الحطام، لكنَّ شيئًا غريبًا اشرأبَّ بداخلي هو التمسُّك بالحياة، وتمنَّيت أن يتوقَّف القصف.

وجدت نفسي أصطفُّ إلى جانب عدوِّي، نتطلَّع نحن الإثنين إلى وجهة واحدة، هي إنقاذ حياتنا.

* * *

أتى سيف مستعجلاً، كأنَّه يهرب من الموت الذي يلحقه، ويحلِّق فوقه!

بنبرة عجولة، قال لماريَّا:

ـ سأُحضر بعض الأغراض، والأوراق، من الداخل، وسنذهب، قالت له بصوت يملأُه الترجِّي:

ـ أرجوك فلنأخذ أهلي معنا.

ردَّ عليها وهو يتوجَّه نحو غرفته:

ـ سنرى.

* * *

خرجنا من البيت، تُرافقنا أصوات الغارات التي تكاثفت، في أسفل البناية. مجموعة من العناصر يقفون تحت سقف المدخل، القلق والخوف يتكبَّش بلحاها، يتسلَّق إلى عيونهم.

أعطاهم سيف بضعة أوامر، ونظَّم انطلاقهم من أمام البناية، ثم ما هي إلَّا دقائق حتى وصلت سيَّارة، فأتاه أحد العناصر، وقال له:

ـ أميري، السيَّارة مؤمَّنة وجاهزة.

سحب ماريَّا من يدها، ومشى إلى البوَّابة. مشيت خلفهم، كنت ألزق نفسي بماريَّا، أمسك بقماش عباءتها، كطفل..

قبل أن يخرج، كأنَّه تذكَّر شيئًا عديم الأهمِّيَّة، قال لأحد العناصر:

ـ حمزة، خذ السبيَّة إلى بيت آمن، وفي ما بعد ترسلها إليّ.

* * *

وخرجا في الظلمة، ما عدت رأيتهما.. ماريًّا بعباءتها السوداء، وهو بقلبه الأسود، اتَّحدا مع الليل، ودار محرِّك السيَّارة معلمًا برحيلهما، دون أيَّة إضاءة..

بقيتُ وسط الظلام، من حولي عشرات العناصر، ومن فوقي عشرات الغارات.

قد أموت الآن تحت إحدى المقاصل المسنَّنة المتجهِّزة حولي، أو قد أموت بأيَّة قذيفة قد تهوي، مخترقة السقف إلى رأسي، فتهشِّمه إلى آلاف الشظايا.

اختلط المنقذ بالجاني، كلاهما قد يتسبَّب بموتي، إنَّها العبثيَّة!

* * *

جلستُ على إحدى الدرجات، كنملة قد تسحقها أيَّة قدم في أيَّة لحظة.

أراقبُ العناصر، كنت خائفة من أن يقترب إليّ أحدهم..

إلَّا أنَّني ما لبثتُ أن أدركتُ، أنَّ رغبة بقائهم أحياء، الآن، أقوى من باقي الرغبات المتراكمة في أجسادهم.

الضوء خافت جدًّا، وهم كالأشباح أمامي، لا يمكنني تمييز

وجوههم وأماكنهم، إلَّا من خلال أصواتهم، وأصوات البنادق التي يدكُّونها بالرصاص لتكون جاهزة. .

بقيتُ مكاني إلى أن لاح الفجر، وهدأ جنون الطائرات. فأن تمرَّ ساعة من دون أيَّة غارة، كان شيئًا جيِّدًا، كنت أُجنِّد سمعي، لأعلم ما الذي سيحدث الآن.

لم يبقَ إلَّا ثلاثة عناصر، الآخرون توزَّعوا خلال الليل.

واحد من الثلاثة كان حمزة، تقدَّم إليّ، وقال:

ـ تعالي معي.

رفعت رأسي، دون إزاحة الخمار عن وجهي، وقلت له بنبرة استفهام:

ـ إلى أين؟ عند ماريًا زوجة الأمير سيف؟

ـ كلَّا، إلى مكان آخر.

لم أتحرَّك. طأطأت رأسي للأرض.

ثم بغضب أضاف:

ـ هيًا. . عيوني، لم يكن ينقصني غيرك.

ـ ٨ ـ

وضعني في شقَّة صغيرة، تكاد تكون غرفة واحدة واسعة، مقسَّمة إلى غرفتين ضيِّقتين، وحمَّام صغير، ومطبخ خال من كلّ شيء.

أتفقَّد المكان، وهو يهمّ بالرحيل. استوقفته، وسألته:

ـ إلى متى سأبقى هنا؟

كان منشغلاً بالبحث عن مفتاح الباب، بين كومة مفاتيح تتدلَّى من حمَّالة مفاتيحه، وعندما وجده ولجه بالغلّ، وهو يقول:

ـ لا أعلم. ولا تسألي أيّ شيء.

أغلق الباب، أقفله قفلين متواليين. نزل الدرج، وخبطُ أقدامه يعضّ الأدراج.

* * *

البناية شبه مهجورة، إن لم تكن مهجورة بالكامل، لا أحد

يسكن هنا. . حتى هذا الحيّ تنعدم فيه الحياة.

ربَّما أكون الكائن الحيّ الوحيد هنا، إضافة إلى هذه الصراصير التي تنغل بين أقدامي المتسمِّرة فزعًا.

الهرب من هذا المكان أشبه بالمهمَّة المستحيلة التنفيذ، الشبَّاكان الكبيران اللذان يشقَّان الحائط، مدعَّمان بقضبان حديديَّة من الخارج.

* * *

أنتقل من مدينة إلى أخرى، من بيت إلى آخر، من رجل إلى آخر. .

تتنوَّع الأمكنة التي يطأها جسدي.

إلَّا أنَّ المكان الوحيد الذي يقبع فيَّ هو جبل سنجار، بما فيه قريتي، منزلي، وملجأي السرِّي، أنا وسيروان.

* * *

رغم الوحشة التي تتأبَّط بالمكان، إلَّا أنَّني أشعر بالراحة، فأنا وحدي.

كنت أتوسَّل أمِّي كلّ ليلة أن تبقى قربي، ومن بعد أن عشقتُ سيروان، بتُّ لا أنام إلَّا وصوته يرقص فوق سريري، مادًّا كلماته من سمَّاعة الهاتف إلى قلبي، فأهدأ، وأرحل للنوم كالمسحورة. .

الآن، لم تعد تُخيفني لا الظلمة ولا الوحدة.

اكتشفتُ وجودَ أشياء مرعبة أكثر من خيالاتي المتوالدة في الظلام!

أشياء حقيقيَّة، لا تختفي إذا أغمضتُ عينيَّ، بل تشتدّ في حال أغمضتهما.

لذلك ينبغي أن أُفنجر كلّ حواسِّي، لتبقى متيقِّظة لأيٍّ هجوم.

* * *

مضت ثلاثة أيَّام، لم أذق فيها كسرة خبز، ولم يتسرّب إلى جوفي قطرة ماء.

في ذروة الظمأ، مددت لساني من بين قضبان الشبَّاك علَّني أسرق بضع قطرات من مطر السماء.

لم يسعفني قصر لساني، فمددت ذراعي، تركتها تتبلَّل، تتشبَّع، ثم أدخلتها إلى فمي، كالكلب الذي يلحس عظمة.

ما أبخل السماء!

خطّ النمل الطويل الذي ما ملَّ من المشي ذهابًا وإيابًا، ينقل على ظهره فتات الفتات. أتأمَّله.. من أين يُحضر حنطته؟

إن بقيت أيَّاما أخرى هنا، فسوف أستولي على هذا الفتات!

وإن متّ ستتقمَّص روحي[1] جسد نملة كهذه، فأشبع!

* * *

في مساء ذلك اليوم، عاد حمزة. دخل محمَّلاً بأكياس كثيرة، وضعها أرضًا، واقترب من الفراش الذي أرتمي عليه، دون قدرة لي على التكلُّم، أو رفع رأسي.

---

(١) التقمُّص: يعتقد الإيزديُّون بأنَّ الروح لا تفنى، وبأنَّها تنتقل من جسد إلى آخر عبر التقمُّص.

هزَّني من كتفي، وقال لي:

ـ يا لكِ من جبَّارة، ما زلت حيَّة.

قلت له جاهدة:

ـ أريد أن أشرب.

* * *

نهض متفقِّدًا محتويات الأكياس، رمى بقربي قنِّينة ماء، أضاف:

ـ لقد أوصلت الماء الآن إلى المواسير، دفقتُ الماء كلّه مرَّة واحدة، ووضعت رأسي مجدَّدًا على الفراش. كان ثقيلاً، يمشي به خدر بطيء.

قلت له:

ـ إلى متى سأبقى هنا؟

ـ اسمعي، الأمير سافر إلى غير منطقة، ولم يعد يريدك، عيوني.

وأضاف بفخر:

ـ أهداني إيَّاكِ، واليوم سآتي ومعي رفيقي، لتكوني لنا.

ثم مدَّ إصبعه إلى الأكياس، وبصوت متوعِّد قال:

ـ سوف تطبخين كلّ هذه المحتويات، لأنَّني دعوته على العشاء، كوني جاهزة، وإلَّا لن تكوني حيَّة بعد ذلك.

وأردف:

ـ لا تنسي الاستحمام.

في داخل كلّ منَّا، شيء أشبه ما يكون بكائن خرافيّ، وحش ربَّما! لا يظهر إلَّا بأوقات نظنّ فيها أنَّنا ضعفاء، وأنَّنا انتهينا.

لنسمع فجأة صوتًا كالدويِّ، يأتينا من قاع سحيق في أعماقنا، فيكون هو. ينطح القشرة البالية لقدرتنا المتآكلة، يجمع نفسه، يفرد أجنحته في كلِّ عروقنا، ويتجهَّز ليستلم عرش الإرادة!

أُحَضِّرُ طعامًا شهيًّا، سيحييني من جديد، لكن دون أن أتذوَّقه، سيحييني من جديد!

أُقطِّعُ الخضار، أسلقُ اللحم، وأتأمَّلُ ثوبًا أحمر شفَّافًا، علّقه حمزة على مسمار صدئ على طرف باب المطبخ.

رسمتُ ما شئت، ولم أتجرَّأ على رسم أحلامي، التي كانت ستتحوَّل واقعًا ملموسًا، لو أنَّها لامست الورق.

كهذا اللحم الذي يغلي ليتحوَّل إلى شبع، ما كان وُجد بين يديّ، لولا إجرام الجزَّار في ذبح ذلك الجدي.

كلّ شيء جاهز الآن، الانتظار بات له نكهة لاسعة، لكنَّها لذيذة. .

سلختُ ملابسي عنِّي، رميت فوقي الفستان الأحمر الشفَّاف، فتنسَّل من الأظافر المقرومة النابتة بلحمي، وتمزَّق.

سأستقبل زوَّاري بعد قليل، فرميت عليّ وشاحًا من الجرأة.

* * *

عندما رآني حمزة وصديقه، أقف كالفرس، راق لهما الجوّ. غمز حمزة صديقه وقال له همسًا، لكنَّه أراده أن يصلني:

ـ ألم أقل لك إنَّها جميلة.

اقترب ومسك ذراعي، همَّ بجرِّي وراءه. قال لصديقه، وهو يزدرد ريقه:

ـ عيوني، أنتَ من بعدي.

استوقفته بغنج. نظرت إليه بعينين استملكهما شيطانُ الإغراء، قلت له:

ـ أنا جائعة ولم آكل بعد، فهلَّا أكلنا قبل!

صاح عليه صديقه قائلاً:

ـ يا حمزة، تعال نأكل الآن، الليل طويل.

تطلَّع إليه، ثم أعاد عينيه إلى وجهي، وعضّ على شفته السفلى، قائلاً بنبرة شرط:

ـ وسوف تفعلين كلّ ما أطلبه منك، عيوني؟

أطبقت جفنيّ بحركة أنثويَّة.

الموسيقى تخرج من موبايل حمزة، كعصافير هاربة من أقفاصها، تحوم حول قامتي المتراقصة، المغطَّاة بالقماش الأحمر.

يقول صديقه بخوف:

ـ حمزة أخفض الصوت، إن وجدوا هذه الموسيقى بموبايلك، لسوف يُنكَّل بك.

يردُّ عليه حمزة باستهتار:

ـ إنَّه راديو.

ثم أشار إليَّ قائلاً:

ـ استمتع الآن يا رجل، يا عيوني.

يدي تعلو، وتنسدل بالهواء، وأيديهم تعلو من الصحن إلى أفواههم.

أدور حولهم كراقصة احترفت لعبة الأجساد، أدلق كلّ شرّ بأنوثتي فوق مائدتهم.

مع صوت الموسيقى المحرَّم، ورقصي على مائدتهم المحلَّل.

بدأت عيونهم تغزوها رغبة النوم، فأطبقوها أخيرًا مستسلمين لجبروت النعاس، وغاصوا بعمق بعيد..

الهواء يصفِر في الخارج، يصطدِمُ بدرفة الشبَّاك، فتئنُّ وتئزُّ. الصحون فارغة، والأجساد ممدَّدة على الأرض، كالجثث النائمة موقَّتًا.

تلك الحبوب الألماسيَّة الصغيرة، التي أسميتها الحبوب اللعينة، آزرت أبو محمَّد في أوَّل اغتصاب، ها هي تؤازرني الآن في آخر محاولة لهم معي.

ها هي الآن تسري بعروقهما، بدمائهما..

أفكِّر.. يا لسخرية الأقدار!

أيكون أبو محمَّد، هو من ساعدني الآن؟ لأنَّه من منحني تلك الألماسات!

بل إنَّه الشرّ الذي يرتدّ على صاحبه، واليوم في هذه اللحظات، ارتّد على أصحابه، على إخوانه.

أقف فوق رؤوسهم، أحاصرهم بسكونهم، وتحاصرني ذاكرتي الصاخبة بالعويل.

منذ أوَّل لحظة، سمعت بصيحاتهم: «الله أكبر» تخترق جدران غرفتي وغفوتي، صحوْت!

نحملُ أغراضنا، نركض، نهرول.. غمرتُ سيروان، أنزلوا أبي، قتلوه..

أسلِموا.. أسلِموا..

صوت رصاص أطاح بخالتي كوري.

صراخ أميِّ التي تشلَّعت لآلاف الأرواح المتمرِّدة، لمساتهم التي تنخرني.

الصلاة، المقصلة. الصلاة، المقصلة.

أقف عارية تحت السماء، بفستان أحمر، يرقص لحمي فوق مائدتهم!

صداعي يطرق برأسي بالهواء، علّه يتفجَّم فأستريح.

لبست ثيابي، وتدثَّرت بالعباءة، اقتربت حذرة إلى حمزة، أبحث عن المفتاح. بطرف أصابعي سحبته من جيبه، وحملت الموبايل الذي أخرس الموسيقى، لا أتذكَّر في أيَّة لحظة.

أُمسكُ بين يديَّ المتنمِّلتين بمفتاح وموبايل حمزة، أراهم بعيوني الزائغة كأنَّهم أجساد من دون ملامح، فقط بلحًى كثيفة.

قبل أن أفتح الباب، وأخطو الخطوة الأولى بطريق حرِّيَّتي، شيء ما شدّني إلى الوراء.

كان هو، كائني الخرافي، وحشي، أعادني لأخيِّم مجدَّدًا فوق رؤوسهم، كملك الموت.

أفكِّر.. ماذا لو استفاقوا، وبلّغوا عنِّي، واستطاعوا القبض عليَّ ثانية؟!

أمسكتُ السكِّين، ودفعتني أجنحة الكائن التي تنقر بعروقي كديوك لا تهدأ، لأن أضع السكِّين على شرايين يد حمزة. وبشجاعة غريبة لم أمرّ بها بحياتي، حزَّيت جلده، وصولاً للحمه عند المعصم، فنفرَ الدمُ أحمر متسارعًا كمجرور انفتح، وفاض وسط الطريق. . .

أُعيد بداخلي. . لقد فعلتها شيرين، رأيتها مُمدَّدة في الزنزانة، ودماؤها متخثِّرة، كالآثار القديمة، صعبٌ أن تتهدَّم بمحراب ذاكرتي.

سحبتُ نفسي، ووقفتُ أشاهدُ السيلان، إلى أن وصل لقدميَّ، ثم كرَّرت الفعلة بيده الأخرى، بمهارة، كأنِّي مارست الذبح من قبل، وانتقلت إلى يديْ صديقه.

كان الدم يسيل فوق مائدتهم أحمر، ممتلئًا بروائح ضحاياهم!

* * *

أسدلتُ الخمار على وجهي، لكي لا أرى ولا أشمّ، لكي أغيب.

عليّ أن أعبر إلى الضفَّة الأخرى، على جسر من جثثهم.

كان الهواء قاسيًا، يلتفُّ حولي، يريد ابتلاعي، العباءة تتطاير كأنَّها تتخلَّى عنِّي. . أشدَّها إليّ من جهة، فتطير مبتعدةً من الجهة الأخرى.

مشيتُ بهدوء، أحاول تملُّكه حتى لا ألفت الأنظار، رغم خلوِّ الحيِّ من الأنفاس، إلَّا أنَّني أشعر بها تتلصَّص بعيون مرعوبة

من وراء الشبابيك المقفلة.

أحاول استجماع أفكاري، وصداعي يعثِّرني لأُهيِّئ نفسي لأيِّ سؤال، ماذا أقول لهم؟

ما هذا التشويش، دماغي لا يمدُّني إلَّا بحجج غبيَّة.

تتسارع الأفكار برأسي، كما خطواتي على الأرض.

أهرول لاهثة، كهارب يبحث عن خلاص.

أضواء سيَّارات تقترب من بعيد، لا بدَّ أنَّها سيَّارات أمنيَّة. ألزقت نفسي بالجدار، أسمعها تقترب أكثر، ولكنَّها دخلت في الطريق الآخر.

مشيت لساعة، لساعتين، والدوريَّات تظهر بين حين وآخر، فأحشر نفسي بمدخل بناية، أو وراء مكبٍّ للقمامة.

يا إلٰهي، ربَّما أدور في المكان نفسه، فالظلام مطبق، والأبنية متشابهة، والطرقات متشابهة، كأنِّي أعيش كابوسًا صداعيًّا، دوَّامة.. وعليّ إيجاد الممرّ الذي يوصل الفأرة بقطعة الجبن، وربَّما تكون عفنة أيضًا.

كم كان شفان يُحبُّ تلك اللعبة! وكنت أكرهها، تُشعرني بالضيق والمحاصرة.

* * *

وصلت لتقاطع، على يمينه فسحة من دون أبنية، يبدو أنَّها مقبرة، والجهة الأخرى مكتظَّة بالأحياء، وطريق واسعة لها متفرِّعات، لا تخلو من حركة..

لم يكن لديّ حلٌّ غير أن أدخل المقبرة، والحياة تتشبَّث بكلِّ خلاياي، أنجدتني ذاكرتي بجملة خالتي كوري، عندما توفِّيت جارتنا العجوز، ورفضتُ حضور العزاء كي لا أراها ميِّتة:

«لا تخافي من الأموات، خافي من الأحياء».

* * *

كأشباح الليل، اندسَّت بين القبور، وأخذت لنفسي مكانًا في الزاوية، قرب السور المطلِّ على البيوت في الجهة المقابلة.

أراقب بعيون تلمع كالقطط، أتفقَّد الحركة حتى أقرِّر بأيَّة لحظة يجب أن أغادر.

ولكنْ إلى أين سأغادر؟ والضوء! ما هي إلَّا ساعات قليلة، ويكشف عباءة التخفِّي عنِّي!

الخوف هو العدوّ الأكبر، في هذا الوقت تحديدًا. عليّ أن أغتاله، أن أُطلق عليه رصاصة وسط جبينه، وعندما أراه يرتمي أرضًا، أرتاح.

هنا، بين هؤلاء الراقدين بصمت أبديٍّ، أستشعر قليلاً من الراحة والسلام.

لكنِّي لا أدري إن كانوا هم يرقدون بسلام أم لا.

أمسكت بالموبايل، وطلبت رقم سيروان، لم يرنّ، ربَّما لسوء التغطية.

جرَّبت ذلك أكثر من عشرين مرَّة، إلى أن رنَّ. خبط قلبي بقفص صدري.

أصرخ وسط الأموات: إنَّه حيّ!

كنت أقول بترجٍّ: هيَّا سيروان ردّ.

إلَّا أنَّ صوته لم يأتني، وهذا الموبايل المنحوس بدأت بطَّاريَّته بالنفاد، تركته قليلاً، وقلت سأجرِّب بعد قليل، أو في الصباح.. ربَّما سيروان نائم الآن، ولكن مئات الأفكار، والتوقُّعات تلبسّتني كجنٍّ، بلا أدنى رحمة.

هل هو حيٌّ؟ هل هو ميِّت؟

ألفُّ جسدي بالعباءة، من دون جدوى، فقماشها خفيف، يستقبل البرد داخلها بدل طرده، فيقوِّي الصداع الذي لا يُحتمل..

أشحذ دفئًا من خيالي!

أتذكَّر كيف يجنّ سيروان، ما إن يتلمَّس برودة وجهي، يتوسَّل بي لأسمح له بتقبيلي، قبلة واحدة، على وجنتيَّ الباردتين. وكنت أرفض، لأنَّني أعلم أنَّه سوف يمرِّغ كفَّيه بوجهي، ليتحوَّل وجهي بدقيقة واحدة، من قطعة ثلج أبيض إلى جمرة حمراء متوهِّجة.

وحين أبعد وجهي عنه، يمسك بي بذراعيه القويَّتين، يلصقني به، ويقول لي بمكر: «اهربي إن تمكَّنتِ من سجن يديَّ».

ويبدأ بغزواته وهجوماته على كلّ بقاع وجهي، حتى إنَّه في إحدى المرَّات قرصني بأنفي بقوَّة، أوجعني، فصرخت به، وغضبت منه ليومين.. كم كنت غبيَّة!

لو أنَّني الآن معه، كم أنا بحاجة لأتحوَّل إلى قطعة جمر، ولو منطفأة!

سهت عيني من شدَّة الصداع، ورمى بي لاوعيي، في تلك الغرفة المظلمة المغلقة نفسها، الجدران تزحف إليّ، تكبِّلني، والكوَّة أمامي كبيرة، والنور أبيض لشدَّته، أُمسكُ رأسي بين يديّ، وأَطرق به الحائط، إلى أن تفجّم الحائط كلِّيًّا، أحاول الخروج، لكنِّي بقيت أغوص في العتمة التي تخنقني.

استفقت على صوت سيَّارات أمنيَّة تدور بالقرب من المقبرة، هل يخافون الأموات، ويلاحقونهم أيضًا؟

عيّرت الوقت بين كلّ دوريَّة وأخرى، بشكل تقريبي، وقرَّرت أن أنطلق لأطرق على إحدى البيوت، عندما تختفي الدوريَّة القادمة. يجب أن يساعدني أحد.

إلَّا أنَّ القرار أخذ معي وقتًا لأتجرَّأ على تنفيذه، وها هو الضوء بدأ ينبثق خفيفًا.

جرَّبت مهاتفة سيروان قبل القيام بأيَّة مبادرة، إلَّا أنَّه يرنّ ولا أحد يردّ.

وعلا فجأة من المآذن صوت أذان الصباح. بدأت الحركة والحياة تعود إلى الشارع الذي يقابلني.

إلَّا أنَّه قبل أن ينتهي الأذان، كان المكان قد خلا، والكلّ يتهيَّأ للصلاة في الجامع.

خرجتُ من المقبرة، قطعتُ الشارعَ العام، البيوت مصطفَّة على الطرفين.

طرقتُ باب أوَّل بيت، طرْقات متتالية. لم يفتح أحد.

انتقلت إلى باب آخر، أطرق عليه بطريقة خفيفة، قلت ربَّما

أخفت من في البيت الأوَّل، من طرْقي الصاخب المتتالي! لكنْ هنا أيضًا لم يفتح لي أحد.

البيت الثالث الذي طرقت عليه، سمعت صوتًا من الداخل.

وبان لي من بعيد ضوء سيَّارة، تلخبطت معدتي من شدَّة الصداع، وشعرت أنِّي سأتقيَّأ، وليس لديَّ من وقت لأنتظر أن يفتح الباب، فدخلتُ بزقاق صغير، وركضت في داخله، إلى أن وصلت إلى باب قديم، لم يكن لديَّ خيار آخر، فطرقت وانتظرت، ثم طرقت ثانية، فأتاني صوت امرأة من خلف الباب تقول، من؟

من دون أن أفكِّر، قلت لها بعجلة:

ـ أرجوكِ ساعديني، أنا إيزيديَّة.

* * *

أتقيَّأ أمام بابها، أسند يدي على الحائط، وبالأخرى أرفع الخمار عن وجهي، كدت أن ألتصق بالأرض، لو أنَّ يدها لم ترفعني.

فنظرتُ إليها محملقة، كأنَّني أرى خالتي كوري أمامي..

ـ ٩ ـ

قرب المدفأة، ألفُّ نفسي ببطّانيّتين، وأشرب شايًا ساخنًا..

بالقرب منّي امرأة في السبعين من العمر ربّما، تشبه خالتي كوري كثيرًا، بجسدها الممتلئ، ببياض بشرتها، وشكل وجهها.

تتلمّس جبيني، ماسحةً على شعري بيد ليست من طين، إنّها من نور.

تطلّعت إليّ تتأمّلني بصمت، بعينين كأنّهما تعلمان كلّ شيء.

قلت لها، وأنا أستشعر دفأً بدأ يسيطر عليّ:

ـ أرجوكِ، أعذريني. لقد أزعجتك، وفرضتُ نفسي عليكِ، إلّا أنّهم..

قاطعتني وهي تبتسم قائلة:

ـ لم تفرضِي نفسك.

رفعت بإصبعها نحو السقف، تعني بذلك السماء، وأكملت:

ـ الله أرسلك إليّ، إلى الحاجَّة أم سليمان، لقد كنتُ سأبدأ بالصلاة، وطرقتِ الباب. علمتُ أنَّ الطارق الذي يقطع صلاتي، ماهو إلَّا من الله..

* * *

استفقت بعد ساعات طويلة، أحضرَت فطورًا، وطلبت منِّي أن أشاركها، تضع لقمة بفمها، وتقول:

ـ كلُّنا، تغيَّرت حياتنا، انقلبت تمامًا.

تغصُّ بتلك اللقمة، وتكمل مع دموعها:

ـ ابني وحيدي، أنا من أجبرته على الرحيل من هنا، حتى لا أُفجع به، كان يجب أن يبتعد، ولو استطعت لهرّبت إخواته، لكنَّهنَّ مع أزواجهنَّ.

وأنتِ أيضًا يجب أن لا تبقي أكثر من ليلة أو اثنتين هنا، أخاف عليكِ، الجدران لها آذان، وعيون، وأيضًا سكاكين تحزّ الأرقاب.

تمدُّ يدها ناحية الشبَّاك وتدلّني، أنظري إلى ذلك البيت هناك، إنَّه بيت أبو خليل، لقد قتلوا أبناءَه الثلاثة، بحجَّة عدم إقامة الصلاة.

لقد فعلوا هكذا مع كثير من الناس، إلَّا أنَّ الحجَّة لا تقنع، لأنَّهم كانوا خيرة الشباب، وأبوهم مات بعدهم بشهر إلَّا كمّ يوم، لم يعش دونهم حتى شهر واحد!

ثم تضيف:

ـ ماذا يمكننا أن نفعل، إنَّهم بلا قلب بلا ضمير، بلا دين.

ـ أليس دينهم هو نفسه دينكم؟

أكملت رشفة الشاي، ثم قالت:

ـ لا، إنَّه ليس نفسه، ديننا هو الإسلام، هل تعلمين ما هو الإسلام؟

ـ نعم، لقد علَّموني بعضًا من تعاليمه حين اختطفوني.

حدَّقت بعينيَّ نظرات دقيقة فيها كثير من الشرح، لكنَّها اكتفت بالقول:

ـ ليس هذا هو الإسلام، إنَّهم لا يمثِّلونه أبدًا.

دخلَت المطبخ، تحملُ الصحون، وهي ما زالت تردِّد:

ـ الإسلام بريء منهم، بريء منهم.

كنت قد نسيت موبايل حمزة معي، فألقيت به بحوض ماء كي يتعطَّل.

وبدأت أستعمل موبايل الحاجَّة أمّ سليمان، علّه يأتيني صوت سيروان من مكان ما.

سألتها عن كيفيَّة مغادرتي هذه المنطقة؟ أجابتني، وهي تحرِّك رؤوس أصابعها بصينيَّة العدس التي تضعها بحضنها:

ـ لا يهمّك، الخروج مضمون، لكنْ يجب أن يلاقيكِ أحد من أقربائكِ خارج هذه الحدود الملعونة.

ـ إنَّني أحاول الاتِّصال بزوجي.

قلت الكلمة دون أن أفكِّر، وجدتها جميلة تولّد الحلم، مجدَّدًا في دواخلي.

تبتسم، وتقول بنبرة حنين:

ـ ياه.. أيَّام خطبتي من عادل، أبو سليمان، لم يكن هناك موبايلات، وحتى هواتف، كنَّا على المكاتيب.

كدتُ أقول لها، إنَّني الآن أتواصل مع سيروان عبر حدسي، لا غير.

أرسل إليه بالتخاطر أحاسيسي واشتياقي، هل تصلك رسائلي حبيبي؟

ثم تتغيَّر نبرتها، فتصبح جدِّيَّة، حازمة، ترفع حاجبيها وتكمل:

ـ سوف تخرجين من هنا كما خرج ابني عمر.

سألتها بحذر:

ـ كيف؟

أخفضت صوتها، كمن يدلي لي بسرٍّ، وهمست:

ـ أحمد إبن أخي، هو من سيقلُّك خارجًا، كما ساعد عمر، سوف يساعدك، لقد تكلَّمت معه، وقال لي بأمرك يا عمَّتي.

ـ كيف سيخرجني؟

ـ معه بيك آپ لنقل الماشية، المهمّ أن يكون زوجك بانتظارك.. وهو اليوم صباحًا، بعد أذان الصبح، سينطلق.

* * *

بقيتُ في الغرفة الداخليَّة أسمع بعضًا من الكلام الذي يصلني من أحاديث أمّ سليمان وجارتها التي قدمت لزيارتها..

وأحاول دائمًا الاتِّصال بسيروان، ولا يجيب!

تقول الجارة بتأفُّف:

ـ لا يمكنني الخروج إلَّا برفقة أبو حسن، ورفقة القفَّازات، ما هذا الوضع!

تردُّ أمّ سلميان:

ـ طيلة سبعين سنة، لم يمرُّ عليَّ أبشع من هذه الأيَّام..

* * *

بلحظة ما، دون أن أتحضَّر لها، ودون أن أتهيَّأ، أن أجهِّز صوتي، وأختلق حروفًا تشكِّل وفدًا لائقًا من الكلمات.

رنَّ موبايل أمّ سليمان بيدي، ورقم سيروان يملأ الشاشة.

دون تفكير، دون قرار، كبست على النقطة الخضراء، سامحة لصوت سيروان بالعبور إليّ، إلى زمني الجامد منذ أن غمرني آخر مرَّة..

وفاسحة المجال لبطانات قلبي، باسترجاع الخفقان الحيّ الحقيقيِّ، ولو لمرَّة واحدة! وبعدها فالأموت وأنا مبتسمة برضا كالقدِّيسين.

أتتني بحَّته التي أعشق، متكمِّشةً بصوته، إنَّه هو، هذا صوته، هذا نَفَسه، لا يمكن لي أن أُخطئ به، حتى لو سمعت أصوات البشر كلّهم.

بكيت بلوعة لم أبكها طيلة حياتي، تشبه بكائي الأوَّل عند خروجي من رحم أمِّي، بكاءً يستنجد الحياة!

مدّ صوته إليّ كجسر من ماء، ينبت به ورد، أعبر من خلاله إلى نفسي، وإليه..

انهالت كلماته المتلاحقة المتلهِّفة المجنونة، على كلّ خليَّة فيّ، فتضخَّمتْ، وبُثَّت بها الروح من جديد، وجدتُ أنَّني أتحوَّل لعملاق من فرح..

تفوَّهنا بالكثير القليل، لكنِّي لم أشبع..

رغم تشرُّبي لكلِّ حرف، ونفس، وشهقة، وبحَّة... لكنِّي لم أشبع!

أخبرني، وصوت الدويّ بالقرب منه، يجعله يتوقَّف عن الكلام، ينتظر ثم يكمل:

ـ لقد هاجموا مزاراتنا أكثر من عشر مرَّات.. وفي كلّ مرَّة، كنَّا نتصدَّى لهم. الوضع صعب، وخطير في أكثر الأحيان، لكنَّنا لن نستسلم.

أضاف:

ـ وحين أراكِ وأغمرك، سأكون بألف خير حينها.

قلت له قبل أن يقفل:

ـ سيروان سأهرب معك، ولن أتندَّم بعد الآن، لأنِّي لم أفعلها من قبل.

* * *

اتَّفقنا على أن يلاقيني في صباحالغد، عند البساتين التي تقع بعد الموصل. أرسلت إليه برقم أحمد كي يتَّفقا على التفاصيل، والمكان المحدَّد.

ما هي إلَّا ساعات قليلة ليذهب الليل إلى الأبد من روحي، سيأتي الضوء ثانية، لينتشر بين ثنايا دواخلي، ويزيل العفونة والنتانة، التي تشبَّثت بكلِّ حناياي.

أتأمَّل أمُّ سليمان في نومها المسالم، كأنَّي أرى أحلامها.

تجلسُ على تلك الكنبة، وابنها عمر يطوِّق رقبتها بذراعيه، ويقبِّل رأسها.

علّها الأحلام تتحقَّق لو لامست الورق!

بحثت عن ورقة وقلم، ورسمت لأمِّ سليمان حلمها.

* * *

أنتظر هذه المرَّة أن يعلو الأذان بكلِّ المآذن، بكلِّ الأراضي، بكلِّ السماوات.

ها أنا أُقفل على ذاكرتي بقفل، سأرميه عندما أخطو أوَّل خطوة خارج هذه المدينة.

مددت يديَّ إلى أعلى، إلى السماء، كأنِّي أراها واضحة، وقريبة أكثر من أيِّ وقت مضى.

أسمع أمّ سليمان تصلِّي في الغرفة الأخرى، وترفع صوتها بالدعاء إلى الله:

ـ يا ربّ السموات، يا حيّ يا قيوم، أنت قادر، ولا أحد قادر غيرك، احمِ يوفا... يا ألله!

* * *

أعطاني أحمد قطعة كبيرة من صوف الخروف، لألتفَّ بها،

حين أندسّ بين الخواريف.

قلت له وأنا أحاول رفعها على رأسي، لأجرِّبها:

ـ إنَّها فكرة رائعة.

تنهَّدت أمّ سليمان بحسرة، وقالت:

ـ كأنَّني أودِّع عمر.

قبل أن أخرج، مسكت بيدها، فتحتُ كفَّها، ووضعت به ورقة.

فتحتها وهي تسألني:

ـ ما هذه؟

انكمش وجهها، وطافت عيناها بالدموع، ثم شدَّتني إليها، وهي تقول:

ـ كأنَّك تعلمين ما أتمنَّى!

ـ أنا رسمت ما تتمنِّين، لكنَّك مَن حقَّقتِ لي ما أتمنَّى.

ـ ١٠ ـ

طلب منِّي أحمد أن ألزم الهدوء طيلة الطريق، وأن لا أتحرَّك أبدًا، لحين يُعلمني أنَّنا قطعنا المنطقة الخطرة.

ثغاء الخواريف من حولي يهدِّئ توتُّري، أقوقع جسدي كلّه تحت الغطاء الصوفي.

الهواء لا يصلني بشكل كافٍ، أرفع الغطاء قليلاً حتى يدخل الهواء، وأنتظر بقلق أن نتوقَّف عند الحاجز.

أفكِّر ببطش الإنسان، من سمح لهؤلاء بأن يستعبدوا البشر هكذا.. أن يذلُّوهم بكلِّ تلك الطرق المتوحِّشة؟ من أعطاهم الحقّ بذلك؟

ثم تهدأ ثورتي، حين تمرُّ صورة سيروان أمامي، كم أنا متلهِّفة لأراه!

الشريطة الحمراء التي عقدتها بمعبد لالش، كانت تحمل

أمنية واحدة: «أن أبقى مع سيروان كلّ حياتي».

هل فكَّ أحدهم اليوم شريطتي!؟

خفّت سرعة البيك آپ، توقَّف. الخواريف، يتضارب الواحد منها بالآخر، بي..

قال أحمد:

ـ السلام عليكم.

ردَّ أحدهم، وكان صوته قويًّا، كديك الصباح:

ـ وعليك السلام أخ أحمد، إلى أين وجهتك؟

ـ سأدور على المسالخ في القرى، والتوكُّل على الله.

ـ متى ستعود؟

ـ حين أنهي جولتي.

ـ أفضِّل قبل أذان المغرب.

ـ إن شاء الله.

ـ الله معك.

مشى البيك آپ، كأنَّه حصان اجتاز بمهارة كلّ الحواجز.

وبتُّ متأكِّدة من أنَّ أحدهم قد فكّ عقدة شريطتي، وستتحقَّق أمنيتي!

بعد مسافة ما يقارب النصف ساعة، طرق أحمد لي على الزجاج الخلفيّ، فأبعدت الغطاء عنِّي، ونظرت من بين الخواريف. لا أعلم أين أنا بالتحديد! جلست أراقب المعالم التي نمرُّ بها، ثم توقَّفنا على طرف الطريق. نزل وفكَّ القفل، ساعدني

بالنزول، لأجلس بالمقعد الأماميّ. سألته:

ـ هل ابتعدنا عن تواجدهم؟

ـ نعم، إنَّما إذا صادفنا أحدهم، لا ترفعي النقاب عن وجهك. وإن سألوكِ، فأنتِ سهى، زوجتي.

ـ يجب أن نكلِّم سيروان. في الصباح الباكر، حاولت مهاتفته، لكنَّه لم يجب.

ـ لا تقلقي.. لقد اتَّفقنا، منذ الأمس، أن يلاقينا في الساعة السابعة، عند البساتين، في أوَّل القرى من الجهة المقابلة.

وصلنا البساتين عند الساعة السادسة والنصف. الأشجار عارية تمامًا. نزّل أحمد البيك آپ إلى قلب البستان، على طريق ترابيَّة طويلة، وتوقَّف بين الأشجار، لكي لا يرانا المارَّة.

أراقب بعيون يسكنها الرجاء والأمل قدوم سيروان.

طلبت من أحمد أن يخرج موبايله من جيبه، ويُبقيه أمامه، حتى نسمعه إن رنَّ، أو استقبلَ رسالة.

ثم مسكته بيدي، أقلّبه.. ثم أطلب رقم سيروان، أزفر بعصبيَّة:

ـ خارج التغطية.

ـ لقد أكّد لي أنَّه سيأتي، وطلب منِّي حمايتك لحين وصوله.

تطلَّعت إليه أحاول سحب كلام منه أكثر، فأكمل:

ـ قال لي: «أخ أحمد، اعتبر يوفا أختك».

ـ سيروان على الجبهة. بالأمس، حين كلَّمته كان صوت القنابل مخيفًا..

جثا ثقل فوق صدري، كحيوان كبير، لا يمكن لي إبعاده. أتطلَّع إلى الطريق الترابيَّة أمامي، أُطيل النظر، علّني بذلك أصل إلى سيروان.

أشعر بشيء ينخر عظمي، هل هو البرد؟ أم الخيبة؟

لففت نفسي بالغطاء الصوفيّ، أنقل عينيَّ بين آخر نقطة للأشجار البعيدة هناك، وبين شاشة الهاتف المعجونة بكفِّي هنا.

أيُّهما سيُحضر سيروان إليّ أسرع؟

إن اتَّصلت لا يجيب، وإن نظرت لا يأتي.

حاول أحمد، بين وقت وآخر، إبعاد هواجسي عنِّي.. يكلِّمني عن عائلته، عن الموصل قبل سيطرة التنظيم.

إلَّا أنَّني لم أستطع سماعه. كنت أهزّ له رأسي، وأسرح كالراعي بين مخاوفي الباحثة عن كلمة أو طيف، لتهدأ.

ثم أستوقفُ حديثه، لأسأله للمرَّة الألف، إذا كان قد تأكَّد من معرفة سيروان بالمكان، والوقت.

* * *

أروعُ الثواني تلك التي لا تخضع لجبروت الزمن، تلك التي يخلقها خيالنا.

والأعظم من كلّ ذلك أنَّنا نصدِّقها، نعيشها بتفاصيلها كما نحبّ ونرغب.

فنشبع حتى التخمة، وبعودتنا للواقع، نجوع حتى البكاء!

سيروان يأتي باتِّجاهي، يختفي بالضباب ثم يظهر.. أراه هناك قرب تلك الشجرة الكبيرة، التي تمتدّ أغصانها إلى نصف الطريق.

ينتظرني.. يلبس بنطاله الكحليّ، وكنزته الزيتيَّة.

الضباب والخمار يعيقان رؤيتي، تدلُّني عليه رائحة عطره، المتزاوجة مع رائحة التراب المبلول بالمطر.

أبعدني عنه ومسك برأسي، أخذ يتحسَّس كلّ وجهي بأصابعه كأنَّه يسترجعني.

غرس أنفه بشعري وشمَّني طويلاً، وأتمتمُ بين ذراعيه: خفت أن لا تأتي.

ليس هناك من بصر، إلَّا عيناه الحاضرتان أمامي.

ليس هناك من حياة إلَّا أنفاسه التي تذوّب جليدي وقهري.

كان سيروان في كلِّ مرَّة يغمرني بها، بجنونه المجنون ذاك،

يشمّ شعري، يشمّ رقبتي، يهمس لي: «لا أحد يحقُّ له أن يشمّ رائحتك غيري».

يعبُّ نَفَسًا، ثم يهمس «أريد أن أبقيها بمجرى تنفُّسي، أن أحتفظ بها. وعندما تكونين بعيدة، أتنفَّسها».

رائحتي، لم أعد، أنا نفسي، أستطيع شمّها. لا أعلم إن كانت ما تزال موجودة، أم أنَّ جلدي بات يفرز روائح من اغتصبوني!

ما أصعب الانتظار! عاهر يدنِّس رأسي بأقذر الاحتمالات!

هل يُعقل أن يكون قد أصابه مكروه؟ أم أنَّه علِق بأحد الحواجز، وساقوه إلى قدر خبيث؟!

ولكنْ، أقذر الاحتمالات التي ما استطعتُ تطهير ذهني منها، هي أنَّه لم يعد يريدني.

* * *

تمرُّ الساعات، كأنّ الزمن يلاحقها، تهرول هاربة من مخالبه، فأقع أنا بها.

يستنزفني، يمتصّ قدرتي، تفكيري، تركيزي.

فتحت الباب فجأة، ونزلتُ أملأ داخلي بالهواء.. إنَّني أختنق، كلّ شيء فيّ يختنق، يُحتضر.

أردتُ الصراخ وسط هذا الصمت، وبداخلي ثقب أسود يحاول أن يبتلعني، وما أنا إلَّا غبار متناثر ما بين الزمن والزمن.

* * *

أجلس على الأرض. أُلقي بوهني إلى جذع الشجرة. أحمد

يجهِّز نفسه ليصلّي العصر. يُخرج قنِّينة ماء من تحت مقعده. يتوضَّأ بها، تحت الشجرة التي تقابلني. يتَّجه نحو قبلته، ويبدأ بصلاته.

أراقبه بهدوء من دون حركة، من دون كلمة.. يركع، ويسجد.

التفتُّ إلى الجهة الأخرى، إلى قبلتي، وليست لديّ القوَّة لرفع كلماتي إلى أعلى، ولا لطلب المعونة والنجاة من أحد.

أشلح كلّ موروثاتي، وأتركها على الأرض قربي، فتطير بدوائر خفيفة الحركة، مرتفعة قليلاً عن الأرض، كأوراق الشجر المصفرّ الميّت..

لو أنَّني فعلت ذلك من قبل، لكنتُ الآن في مكان بعيد مع سيروان.

لو أنَّني تعرَّيت من أثقالي، لاكتسيت حرِّيَّتي.

أحزّ بإصبعي التراب، أُلاحق دودة، تسرع زاحفة إلى ثقبها، ممَّ تخاف؟ ممَّا تهرب؟

سأكون ممتنَّةً لخالقي، لو حوَّلني الآن لمثلها، وابتلعني باطن هذه الأرض.

* * *

قُبيل المغيب، طلبتُ من أحمد أن يعود إلى الموصل، ومشيت مبتعدة عنه. ناداني قائلاً:

ـ انتبهي، فبعد هذه البساتين، توجد سهول زراعيَّة، لكنْ على حدودها زُرعت ألغام.

توغَّلتُ في البساتين، راحلةً إلى قدري بنفسي.

يجب أن أتحوَّل الآن إلى صندوق فارغ، لأملأه مجدَّدًا. يعيقني أنين، يأتيني من مكان ما بذاكرتي الممتلئة بالتقيُّحات المقزِّزة. أركض بها، إلى حيث أتركها وحيدة، لتُحتضر فأحيا، أو لتُشفى فأموت.

لكنْ لا يمكنني أن أكمِل بها!

بعد ساعات من المشي تحت المطر، بدأتُ أفقد قوَّتي على المتابعة. انتظرت بالقرب من بضع أشجار.. وبعد مضيٍّ وقت، عدت وانطلقت مجدَّدًا، بأقدامي التي تغوص في الوحل، بعباءتي المبلولة حتى التخمة ماء، بعطشي وجوعي.

* * *

الشمس تُعيد خلق نفسها من أرحام الليل. أشهد على

ولادتها، وأنا أقف على آخر مساحة من الحقول الزراعيَّة، وأمامي أراضٍ، حُبِّلت بالألغام على مرأى من السماء.

بعيدًا عن كابوسي، أو استمرارًا له، أمدّ قدميَّ من الحائط المكسور، خارج حدود الغرفة المظلمة المغلقة نفسها، لأكتشف أنَّها ليست مجرَّد كابوس يأتيني خلال الصداع، بل واقع كنت أعيشه!

أخطو الآن أولى خطواتي باتِّجاه النور المُبطَّن بالألغام.

تاركةً العباءة السوداء تنسدل عن رأسي، وتغادر جسدي متطايرةً بعيدًا، بعيدًا، كشبح مريض.